الفصل الثامن عشر

الحاج مالك الشباذ

الفصل الثامن عشر
الحاج مالك الشباذ

تشريفاً من العاهل السعودي والحاكم المطلق فيصل بن عبدالعزيز نزلت ضيفاً عزيزاً على البلاد، وفيما لقيته من كرم وحفاوة ما زلت أذكر تلك السيارة الفخمة وسائقها الخاص والتي طافت بي أرجاء مكة المكرمة مستكشفاً معالم تلك المدينة ولا سيما ذات الأهمية الدينية الخاصة منها، فقد كانت بعض أرجاء المدينة المقدسة ضاربة في القدم، وبعضها الذي شُيَد على نمط الحداثة كان أشبه بضاحية (ميامي). وما زلت حتى هذه اللحظة عاجزاً عن وصف تلك المشاعر التي انتابتني وقدماي تطآن نفس التراب الذي وطأته أقدام كوكبة من الأنبياء قبل أربع ألف سنة مضت من الزمان.

"مسلم من أمريكا. مسلم من أمريكا" ، هكذا كانت عبارات التعجب والاعتزاز تنطلق حيثما ذهبت، وأدركت حينذاك كم كنت مخطئاً في حق (كاسيوس كلي)، رغم الصورة التي تجمعنا معاً في الأمم المتحدة والتي نشرتها إحدى الصحف المحلية. عبر دليلى المترجم تلقيت كثيراً من الاستفسارات عن ذلك الرجل الذي لا يستثنى من حبه حتى الأطفال في العالم الإسلامي، وبرغبة شعبية استطاعت السينما في آسيا وأفريقيا الترويج لكفاحه وإيجاد صورة حسنة له ، فحظى بدعم وتأييد كل القارة السوداء.

وصلنا إلى جبل عرفات ومِنى للمشاركة في الصلاة، وكان الطريق إليها مسرحاً للقيادة المروعة والازدحام المروري الفظيع، زعيق الفرامل ونفير العربات المزعج وإنحرافها عن جادة الطريق، كل هذه المشاهد لم أرى مثلها من قبل.

والغريب في الأمر أن كل من يجلس خلف المقود يبدأ القيادة باسم الله، أو لا تكفي هذه العبارة السامية، وما تمليه حرمة تلك الأراضي المقدسة لتجنب مثل هذه الفوضي المرورية.

ثم بدأت في تعلم الصلاة باللغة العربية وشيئاً فشيئاً إعتدت على أدائها رغم ما أصاب قدميّ من جلوس وركوع وسجود.

ويوماً بعد يوم تعودت على قيم الإسلام وأعراف المسلمين، الأكل من إناء واحد، والشرب من إناء واحد والغسل من صحن واحد والنوم في العراء على سجادة واحدة مع ثمانية أو عشرة من الحجيج. وإني أذكر ذات يوم تحت سماء مزدلفة أن كنت مستلقياً مع غيري من الحجيج ، ورغم اختلاف الجنس واللون والبلد ورغم

اختلاف الطبقة والمستوى المعيشي كنا سواسية كأسنان المشط نغط جميعاً في نوم عميق وعلى فراش واحد، فيا لعدالة الإسلام وسماحته.

وأشهد عند طوافي بالبيت الحرام على ضخامة عدد المشروبات الغازية والملايين من صناديق السجائر التي استهلكها الحجيج، خصوصاً العرب المسلمين فهم أكثر إسرافاً في ذلك، رغم أن التدخين بدعة لم يسنها النبي في أيامه، ولو فعلها صحابته لكان قد منعهم منها.

وقد كان ذلك أضخم موسم حج من نوعه، حدثني (قاسم جوليك) عضو البرلمان التركي بفخر واعتزاز، أن بلاده وحدها قد شاركت بما يزيد عن خمسة آلاف من الحجيج، قدموا على متن ستمائة حافلة سفرية، فأثنيت على ذلك متمنياً أن أشهد اليوم الذي سترسو فيه سفن أمريكا وتحط أساطيلها الجوية بملء حمولتها من الحجيج، تائبين، زائرين بيت الله الحرام.

ولكن ثمة شيء من التكتلات اللونية الملحوظة، وكزنجي أميركي جُبِل على حساسية اللون، كنت أحسب أن هذا أمر واقعي لا جدال فيه، حتى تأكدت أن الكل ينجذب طواعية إلى أبناء جلدته, إفريقي كان أم آسيوي، بواقع ما يجمعهم من وطن أو ثقافة مشتركة مما يخفف من معاناة الحج، فآليت على نفسي عند عودتي إلى أرض الوطن أن أخبرهم بهذه الأخوة السامية والعدالة الاجتماعية النادرة، هنا حيث لا يوجد للتفرقة العنصرية مُعينٌ، وحيث تُوأد عقدة النفس والاستعلاء العرقي.

وإني لشديد الحرص على زيادة حصيلتي من مفردات اللغة العربية في موسم الحج القادم، فقد كنت محظوظاً أن أحظى من الأصدقاء ما يصبر على جهلي باللغة العربية ويقوم بدور الترجمان، فقد كنت كالأصم والأطرش مما يقوله المسلمون من حولي قبل أن يدركوا أن هذا الأميركي المسلم لا يعرف من اللغة العربية إلا ما يعينه على أداء صلواته، ولا تسعفه غير ذلك إلا الابتسامة والإيماءة كلغة للتواصل.

وخلف الابتسامة والإيماء تتواصل النفس بأحاديثها الصامتة، فما زلت أؤمن إيماناً قاطعاً أن العادات الإسلامية السمحاء يمكن أن تسع العالم بأجمعه لو وجد الحج بتعدد أجناسه وروحانياته الصادقة إعلاماً ووسائطاً إعلامية كافية، فما زال العرب في أمس الحوجة إلى فهم نفسية الأمم الأخرى وطرق تفكيرهم، الأمر الذي يحتمُ عليهم التواصل الاجتماعي، فعلى سبيل المثال يقول العرب بلغتهم (إن شاء الله) ثم ينتظرون التغيير من عند الله ولا يحركون ساكناً. ولكن رغم أن الإسلام كفكر في تقدم، ما زلت أؤمن أنه بإحداث منهجية متطورة للتواصل الاجتماعي ستزداد حصيلة المعتنقين الجدد للإسلام بما يربو على الملايين.

أينما اتجهت يسألني الناس عن التفرقة العنصرية في أمريكا، وتعجبت للصورة السيئة التي طبعتها أمريكا في أذهان الأخرين.

في كثير من الحوارات التي أجريتها في الأرض الحرام مع إخوتي المسلمين ولاحقاً عند زيارتي للقارة الأفريقية، استغليت كل فرصة لأفصح عن كل صنوف المعاناة التي يلاقيها الرجل الأسود في أمريكا. وقد تحدثت عن ذلك عبر المترجم في جبل عرفات وفي ردهات فندق قصر جدة، فهناك في وطني عندما تنادى لسواد جلدك "يا أنت" فهي تعنى "أيها الزنجي"، ولسواد جلدك تلحق بك كل أصناف المذلة والهوان، فقد تصاب برصاصة في القلب أو يرش جسدك بخراطيش إطفاء الحريق أو تتمزق أشلائك بقذيفة صائبة أو تنهز بالمهماز.

وقد استمع إلى قضيتنا كثير من الشخصيات الإسلامية النافذة، وإني لأذكر ذلك الرجل ذي العينين الزرقاوين والشعر الأشقر (مفتي القدس)، فقد قام باستضافتنا أنا وعضو البرلمان التركي (قاسم جوليك) وقد كان كل من الرجلين المثقفين على درجة عالية من المعرفة والعلم بأمريكا. فسألني قاسم عن حقيقة خلافي مع (أليجاه محمد) فأوعزت له أن لن أخوض في هذا الأمر، حفاظاً على وحدة الصف الداخلي للزنوج، ففهم كل من الرجلين ما أرمى إليه وتقبلا ذلك.

وفي سياق زيارتي للأراضي المقدسة كان لي شرف اللقاء مع محافظ مكة الشيخ عبدالله العريفي، ذلك الصحفي الهمام والذي انتقد في السابق مجلس البلدية وأساليبه الإدارية، فتم تعينه محافظاً لمكة لتنفيذ مقترحاته على أرض الواقع، والكل يشهد له بالبذل والعطاء والنجاح.

قام التلفزيون التونسي بواسطة كل من (أحمد حورياله) وشريكه (عزت محمد) بإنتاج فلم تحت عنوان (مسلم من أمريكا)، وفي شيكاغو أجرى أحمد حورياله ذات مرة مقابلة مع أليجاه محمد.

وفي فندق جدة أجريت العديد من المقابلات ذات الثقل والأهمية مع لفيف من الشخصيات من مختلف الدول، وقد كانوا في أشد اللهفة للاستماع إلى المسلم الأميركي. وقد التقيت بكثير من الأفارقة الذين قضوا أوقاتاً في أمريكا أو استمعوا إلى شهادة آخرين عن المعاملة التي يلاقيها الزنوج في أمريكا، التقيت بأحد رؤساء الوزراء الأفارقة فانجذبت إلى ثقافته الواسعة والتي لم أشهدها في شخص من قبل، فحدثني عن أسفاره داخل الولايات المتحدة شمالها وجنوبها متعمداً عدم ارتداء الزي الشعبي لوطنه، فوصف لي مالاقاه من صنوف المذلة والتجريح بإعتباره زنجي أميركي، مما دفعه إلى معاملتهم بالمثل، متناسياً ما أوتى من علم ورفعة ومنزلة

كرجل دولة محترم، وقد كانت عيناه تتطايران شرراً، ويداه تلوحان وهو يردد لي غاضباً "لماذا يستكين الزنوج لهذا الهوان ؟. لماذا لا يقاتلون استرداداً لإنسانيتهم السليبة وكرامتهم المهدورة ؟".

مسؤول سوداني وآخر هندي أبديا تعاطفهم مع قضية الزنوج، فحدثت نفسي مراراً لماذا نحن غافلون عن أبناء جلدتنا غير البيض والمتعاطفين معنا، لماذا نتقاعس نحن الزنوج عن التفكير فى ما تردت إليه حالنا، وأننا جزء من جسد واحد أسود له امتداداته في كل أرجاء المعمورة.

هناك في أرض الله الحرام وفي إفريقيا السوداء تكونت قناعتي التامة أنه يجب أن يكون من صميم أولويات أي قائد من الزنوج الأمريكيين الترحال المستديم في بلدان العالم التي لا يقطنها البيض، على أن يتضمن ذلك عقد كثير من المؤتمرات مع وجهاء تلك الديار وأصحاب الأمر والنهى فيها. وأنني على يقين تام بأن صدقه وانفتاح عقله سوف يعودان عليه كقائد بأفكار جديدة تكون اللبنة الأولى للبدائل المبتكرة في خارطة طريق قضية الزنوج وسبل حلها واستئصالها.

ففوق كل الحسبان، أفصح لي كثير من القادة السود عن رغبتهم في نصرة قضيتنا من داخل أروقة الأمم المتحدة، بيد أنهم يدركون أن ذلك لن يتأتى طالما أن الزنوج أنفسهم في فرقة وشتات وانقسامات لا طائل من ورائها. كما أنهم لا يستطيعون فهم قضيتهم وتعريفها واستدراك أبعادها.

وأكرر القول أن كثيرًا من الأخوة الأفارقة يتحرجون من إقحام أنفسهم في إنقاذ إخوة لهم لا يعيرون لأمرهم انتباهاً، والذين تتم مواقفهم عن رفضهم التام للمشاركة حتى في مساعدة أنفسهم. ومما يؤخذ على القائد الأسود الأميركي محدودية تخطيطه الاستراتيجي، وإن نجح في ذلك فبالقدر الذي يلهمه به أو يرضاه الرجل الأبيض، وذلك لأن نظام الحكم الأميركي تتعارض مع مبادئه أن يدرك الزنجي أهمية الخروج بقضيته إلى العالم الخارجي، كما يرضيه تقيُد أفكاره وقوقعتها في حيز ضيق.

إن من أفدح الأخطاء التي ارتكبها القادة السود ومنظمات المجتمع الأسود الأميركي هي فشلهم الذريع في إيجاد صيغة للتواصل مع شعوب الدول الإفريقية الحديثة الاستقلال، فهم في أمس الحوجة إلى معرفة صادقة ومتواصلة بآخر التطورات في كفاح الرجل الأسود الأميركي من مصادره الذاتية، بدلاً عن ما يشيعه النظام الأميركي إلى القادة الأفارقة والشعوب الإفريقية عبر مؤسساته الإعلامية الكاذبة والتي توحى لهم أن قضية الزنوج قد تم علاجها تماماً.

اثنان من الكتاب الذين خدموا قضيتنا وجدت مؤلفاتهما رواجاً كبيراً في الأرض الحرام وهما (جيمس بولدوين) والذي أحدثت مؤلفاته أثراً هائلاً، و(جون قريفن) مؤلف (أسود مثلي)، ويُلخص في أن كاتبه قام بطلاء جسمه بلون أسود وخلال شهرين قضاهما متجولاً في أمريكا كزنجي أسود، تتجلى للقارئ تجربته المروعة مع البيض، ولقد سمعت عبارات الدهشة والتعجب من الذين حالفهم الحظ في قراءة هذا الكتاب من الحجيج، ولكن دون ذلك كانت أسئلتهم تنشد أكثر من ذلك، فإذا كانت هذه تجربة مؤلف أبيض في جلد زنجي أسود لمدة ستين يوماً، فما هي تجربة الزنجي نفسه؟ وما حجم مأساتها عبر أربعة قرون مضت من الإضطهاد العرقي؟ وكيف عبر عنها؟ ولماذا يتردد في نقلها إلى العالم الخارجي؟.

وقد كان لي عظيم الشرف أن حُظيت بدعوة شخصية من قبل الملك فيصل، وعندما دخلت إلى مكتبه، قابلني ذلك الرجل الطويل القامة ذو الوسامة البادية. ومازلت أذكر تلك اللحظات، هنالك حيث وقف أمامي رجل من أشهر سادات العالم، ومع وقاره وهيبته يتجلى للمرء تواضعه الجم، حيث أجلسني على مقعد قبالته، وقام بدور المترجم نائب رئيس المراسيم السيد/ محمد عبدالعزيز ماجد، وقد كان مصري الميلاد شديد الشبه بزنوج (هارليم).

أومأ لي الملك متفهماً عندما تعثرت كلمات الشكر في فمي لما وجدت من كرم وحفاوة وإنزالي ضيفاً عزيزاً على البلاد، فأعرب قائلاً أن هذا ليس إلا حق من مسلم إلى أخيه وذلك أيضاً لخصوصيتي كمسلم مميز من أمريكا، وأن هذا الاستقبال يأتي بمحض إرادته ورغبته ولا تدفعه أي دوافع أخرى. ومضى حديثنا إلى حيث التقيت بنجله محمد فيصل في التلفزيون الأميركي عندما كان بجامعة كلفورنيا الشمالية. وقد قرأ الملك فيصل مقالات لصحفيين مصريين عن المسلمين السود في أمريكا، ولو صح ما قيل على حد قوله "فإن المسلمين السود قد ضلوا عن جادة الطريق" . وفاض بنا الحديث إلى الدور الذي لعبته في الاثنتي عشرة سنة الماضية في تأسيس منظمة (أمة الإسلام)، وأن زيارتي للحج تهدف إلى الفهم الصحيح لحقيقة الإسلام، فعلق الملك على ذلك قائلاً: "أن كثيراً من المؤلفات المترجمة إلى اللغات الأخرى تحدثت عن الإسلام فلا مجال للجهل بحقيقة هذا الدين، فما بال إخوة الإسلام الأوفياء في فرقة وشتات يزجون بأنفسهم في شراك الضلال".

في نهاية شهر أبريل سافرت إلى بيروت العاصمة والميناء الساحلي لجمهورية لبنان، ولشدة تعلقي بالأرض الحرام أدركت عند فراقها كأنما جزء من نفسي قد أقتطع للبقاء بها وبالمقابل ما زلت أحمل من ذكرياتها أجزاءً في نفسي حيثما حللت. وقد كنت في طريقي إلى نيجريا وغانا، بيد أن بعض الأصدقاء الذين التقيت بهم في

مكة ألحوا علي أن أتوقف في طريقي في بعض المحطات العابرة فكان لهم ذلك، وعلى سبيل المثال تم تنظيم لقاء بلبنان جمعني بطلاب الجامعة الأمريكية ببيروت.

وفي فندق الشاطئ النخلي بمدينة بيروت خلدت روحي في نومة وادعة كانت الأولى من نوعها منذ أن فارقت الديار الأميركية. وقد شد انتباهي الطابع العام للمرأة اللبنانية فقد كان مختلفاً عن ما رأيته في نساء مكة واللواتي كن أكثر احتشاماً وأنوثة عربية مقارنةً بالمرأة اللبنانية ذات الهجين الثقافي العربي والفرنسي، ويتجلى ذلك في الجرأة والتحرر في الملبس وطريقة المسلك في الطرقات العامة، فطرق في بالى سؤال هام: هل يحق لنا أن نحكم على قوة أو ضعف أخلاقيات بلد من البلدان أو شعب من الشعوب من خلال الطابع العام وسلوك نسائه، خصيصاً لو كن هؤلاء النسوة صبيات يافعات؟، فمهما تضاءلت القيم الروحانية أمام الموجة المادية الزاحفة، فإن المرأة هي المرجع والمعيار الأساسي للحكم على مدى تجسد وطغيان تلك القيم المادية.

فإن النساء في أمريكا عجائزاً كُن أم فتيات لم تبق فيهن ذرة من القيم الروحانية إلا ما ندر، ويبدو أن كثيراً من بلدان العالم لا ترضى بالاعتدال، فتقبل بالانحياز لأحد الطرفين النقيضين سلبياً كان أم إيجابياً، حقاً كما زعموا لن نصنع فردوسنا المفقود إلا عندما يصبح التقدم المادي والقيم الروحانية في وفاق تام.

تحدثت في جامعة بيروت عن موقف الزنوج الأمريكيين بطريقة أستطيع أن أستلهم بها ردود أفعال المستمعين كمتحدث خبير في ذلك، وكان لي ذلك بالفعل، حيث وقف الطلاب البيض موقف المدافع أو المحايد لما قلته، ثم خمدت ثورتهم شيئاً فشيئاً عندما توالت الحقائق. ولكن أين هم الزنوج أو فلنقل الأفارقة أو ذوي الثقافة الأفريقية والأميركية؟ عفواً لم أنجح في معرفة كيف يعبر الأسود عن دواخله سلباً أم إيجاباً.

وكم كانت دهشتي عندما علمت (لاحقاً) أن الصحافة الأميركية قد ذكرت أن خطبتي في الجامعة الأميركية ببيروت قد أحدثت شغباً في وسط الطلاب، أي شغب هذا الذي يدعون؟، وإني لأعجب كيف لمراسل صحفي في كامل عقله ووعيه أن تسمح له نفسه بتزييف الحقيقة وإرسالها بعيداً عبر البحار ليتم توظيفها كما تشاء الصحف الأميركية؟. وقد علقت الصحيفة البيروتية (الديلى ستار) في صفحتها الأولى بمقال يفند ذلك الشغب المزعوم.

وكالعادة كانت ردود أفعال الطلاب الأفارقة إما إرجائى للتوقيع على الاوتغراف أو مهنئاً لي بالعناق معبرين عن سعادتهم للخطبة العصماء، أما الزنوج الأميريكيون

فحدث ولا حرج لم يحركوا ساكناً حتى ولو بسيماء الرضا والقبول مثل إخوتهم الأفارقة الذين بدوا أصلب منهم بالمجاملة في الأخذ بيد أخيهم المسلوب.

من بيروت سافرت عائداً إلى القاهرة ثم الإسكندرية بالقطار. إنها مصر التي أتحفت روحي فحملت "الكاميرا" لتصوير آياتها الساحرة، حتى أقلتني الطائرة إلى نيجيريا.

عبر الساعات الست المتواصلة بالطيران كنت أتجاذب أطراف الحديث مع قائد الطائرة وعلمت أنه بطل من أبطال أولمبيات 1960 للسباحة، كما تحدثت مع أحد الساسة الأفارقة حيث عبر لي ساخطاً "عندما تُنشل الشعوب من حالة السكون، ولانتقالها التلقائي السريع فهي بمقتضى الحال لا تدرك معنى الاقتراع والتصويت"، وقد كان مدلول قوله أنه لن تقوم للأمم الإفريقية الجديدة قائمة مهما سعت إلى تحرير نفسها إن لم ترتق إلى فهم وضعيتها الجديدة وذلك لأن أنظمتها الوطنية الحاكمة لن تزيدها إلا فرقة وخصاماً عبر التصويت والاقتراع، فمن واجب القادة المستنيرين الجدد الارتقاء أولاً بأفكار هذه الشعوب.

وفي مدينة لاغوس إلتقيت بالبروفسير (اليسين يدوم) من جامعة أبادان وكنا سعيدين بهذا اللقاء، فقد التقيت به سابقاً في الأمم المتحدة عندما كان يدرس (أمة الإسلام) توطئة لكتابه (القومية السوداء)، فدعاني إلى مأدبة عشاء بمنزله أقامها على شرفي وقد حضرها كثير من الأساتذة المهنيين، فسألني هناك طبيب شاب عن مدى معرفتي بالخبر المنشور في صحيفة النيويورك سيتي واستيائها لقتل إحدي النساء البيض في مدينة (هارليم) وعلى حد قول الصحيفة : أنَّ كثيراً من الناس يحملني مسؤولية ذلك، كما ذكرت الصحيفة أن فتية من الزنوج قاموا بمباغتة زوجين من الكهلة البيض يملكان متجراً للثياب مما أسفر عن مقتل الزوجة بآلة حادة، وأن بعض هؤلاء الفتية قد كشف عن هوية انتمائهم لمنظمة تدعى (إخوة الدم)، وهم بذلك قد أوعزوا ضمناً انتماءهم للـ(مسلمين السود) والتي انشقت من (أمة الإسلام) للانضمام إلى مالكولم إكس. ففي تلك المأدبة أخبرت الحاضرين أن موقفي ما زال واضحاً من هذا الأمر، فالعنف متوقع طالما الزنوج في أمريكا يتكدسون في أكواخ شعبية أشبه بحظائر الماشية منفيين كالمجازيم وغيرهم من البيض غارق في نعيم، فإن المجتمع الأبيض بارع في تصيد الأخطاء وتجاهل الدوافع، إن ما لحق بي من تُهم صادفت هوىً في نفس الرجل الأبيض الذي يبحث دوماً عن كبش فداء تتذرع به آثامه ، فعندما يرتكب السود مسلبة يكرهها البيض فإن الرأي العام للبيض عادة ما يُوجَّه للتنديد بالحدث و ليس لتقصي الدوافع و الأسباب التي يقف من ورائها الرجل الأبيض .

أما فيما يتعلق بجماعة (إخوة الدم)، فلقد ذكرت مراراً أن كل الزنوج الأمريكيين إخوة لي و تجمعنا أواصر الدم و القربى، فكلما حاول البيض تلويث اسمي، انقلب الأمر عليهم وزادت شعبيتي كيوليوس قيصر الروماني ، وما أشبه اليوم بالبارحة.

وفي جامعة آبادان ناشدت الدول الإفريقية المستقلة للدفاع عن قضية الزنوج الأمريكيين عبر الأمم المتحدة، فقد سبقنا اليهود الأميريكيون في إحداث التوافق الخارجي والداخلي لقضيتهم وذلك باستنفار أبناء جلدتهم من يهود العالم لتوفيق أوضاعهم السياسية والثقافية والاقتصادية وكان لهم ذلك، وقد حان الوقت لإنضمام الزنوج الأمريكيين إلى ركب (القومية الأفريقية العالمية)، فقد حان الوقت أن نتبنى فلسفة استراتيجية ثقافية تجمعنا مع إخوتنا الأفارقة وإحداث وحدة هادفة في إطار (القومية الأفريقية).

ومما أذكره أن أحد الصبية الأفارقة قد فاجأني بأسئلته السياسية الحرجة، فقام عجوز هندي من الأمريكيين الغربيين بمهاجمتي ثأراً لأمريكا التي هاجمتها في تواتر أجوبتي على أسئلة الصبي، فمن جراء ذلك تهافتت عليه صرخات الاستهجان، فحاول الهندي المعاندة، فهجم عليه الطلبة، فولى هارباً أمامهم حتى خارج أسوار الحرم الجامعي، فعلمت مؤخراً بزواج ذلك الهندي من امرأة بيضاء وسعيه للعمل بإحدى الوكالات الهامة التي وقفت من خلفه للإيقاع بي، فوضح لي الأمر برمته. ولكن هذا الموقف ليس الأول والأخير الذي يكشف عن غيرة الإفريقي وحزمه في التعبير عن مواقفه السياسية.

وفي اتحاد الطلبة نزلت ضيفاً عزيزاً على (جمعية طلاب مسلمي نيجيريا)، فمنحت بطاقة العضوية واسماً جديداً (أومويل) ومعناها بلغة اليوريا (الابن العائد لأوطانه).

هناك في نيجيريا ما يقارب الستمائة عضو في هيئة السلام كما علمت، وبعض أعضاء هيئات السلام التي ينضوي تحت لوائها البيض تحدثوا إليّ صراحة عن تحرجهم مما يقترفه أبناء جنسهم في أمريكا. ممن تحدثت إليهم وأقربهم إلى نفسي من الزنوج السيد/ لاري جاكسون وهو من ولاية مورقان وقد تخرج من جامعة (لودريل) بفلوريدا وقد انضم إلى هيئة السلام في عام 1962م.

تمت استضافتي في التلفزيون والراديو النيجيري، فذهلت من الفارق بيننا وبينهم، رجال سود يديرون وكالات الأنباء بأنفسهم، وقد أجرى الحوار معي زنجي أميركي من مجلة (النيوز- ويك) يدعى وليم, حيث طاف بأرجاء إفريقيا وأجرى حواراً صحفياً مع رئيس الوزراء (كروما).

بطريقة خاصة حدثني بعض المسئولين النيجيريين كيف أن الإعلام الأميركي قد نجح في إيهام الأفارقة أن الزنوج الأمريكيين ماضون قدماً نحو المساواة مع البيض، وأن قضية التفرقة قد شارفت على النهاية. وحدثني مسؤول رفيع المستوى أن قادتهم يدركون غير ذلك، فبعيداً عن أروقة السلك الدبلوماسي يقر مسؤولون في الأمم المتحدة بأن سياسة الرجل الأبيض أن يجعل شعوب العالم ذات الموروث الإفريقي منفصلة أيديولوجياً وفسيولوجياً عن بعضها البعض، وفي بلادكم على حد قوله : "كم من السود يعرف أن شمال ووسط وجنوب أمريكا تحوى ما يربو على ثمانية مليون من أصول إفريقية؟، ولكن مسيرة الأيام سوف تغير هذا الواقع، فسوف تتحد كل الشعوب ذات الموروث الإفريقي". ولم أسمع مثل هذا التفاؤل من أي زنجي أميركي! .

ومن العاصمة النيجيرية لاغوس سافرت إلى مدينة (أكرا) بغانا، وفي اعتقادي لا يوجد مكان في القارة السوداء يفوق شعبها ثراءً وجمالاً في طبيعتها، والتي تعتبر دون فخر رأس رمح (القومية الأفريقية). وفي المطار تعرفت إلى رجل أميركي أبيض وجهه ضارب إلى الحمرة من مدينة (ألاباما)، حيث دعاني إلى وجبة العشاء بمنزله.

وفي غرفة الطعام بفندقي عندما ذهبت لتناول وجبة الإفطار كان كثير من البيض يتحدثون عن ثروات إفريقيا غير المستغلة، ولم ينتبه الندلاء إلى ذلك، كما لم أستمتع بوجبتي وأنا أفكر كيف في أمريكا يسلط رجال الشرطة كلابهم على السود ويرمون القنابل على كنائسهم، وهاهو ذا الرجل الأبيض يعيد الكرة في نفس الأرض التي سرق منها أجدادنا ليرزحوا في نير العبودية. فقد سرق البيض مواردها البشرية والآن يعودون لسرقة موارد إفريقية المعدنية. وآليت على نفسي أن لا تتعارض انطباعاتي هذه عن البيض مع قناعاتي التي تعلمتها في الأراضي المقدسة عن إخوتي في الإسلام من البيض ولكن هم أقلة.

اتصلت بالكاتب(جوليان ميفيلد) الذي يعد رئيساً للأقليةالأفارقةالأمريكيين المغتربين بغانا، وكان في انتظاري بمنزله أربعون رجلاً من الزنوج المهاجرين، حرفيين ورجال أعمال مثل المناضل (بروكلي نايتث) و(روبرت إي) وكل من الرجلين طبيب أسنان وقد أسقطا الجنسية الأميركية، وأخيراً (أليس ويندوم) و (مايا أنجلو) و(فكتوريا قارفين) و(ليلى لاسي) قاموا بتأسيس جمعية مالكولم إكس، حيث دفعوا بي إلى دوامة من المناسبات الاجتماعية.

ويجدر بي هنا أن أذكر تعليقات كثير من الصحف التي سبقتني عندما علموا بخبر زيارتي لغانا مثل [مالكولم إكس الإسم الدوى في سماء غينيا كشهرة الكلاب البيض

ذوي الوجوه المقيته وما اقترفوه من آثام في الجنوب الأميركي] ، [مالكولم إكس الأمل المشرق،الرجل الذي فضّل الثورة البيضاء والمقاومة السالبة ومنهج اللاعنف]، [مالكولم إكس أول قائد أميركي من أصول إفريقية ذو مواقف قومية، يقوم برحلة خاصة إلى أفريقيا منذ أن قام دكتور (دويويس) بزيارة غانا، وهذا يبشر بميلاد عهد جديد في الكفاح الأسود]، [مالكولم إكس المناضل والقائد الفذ، نحن في حرب فحذار من كيد الأعادي له بإفساد العقول وزعزعة ثقة الناس به].

لم أتوقع ذلك الاستقبال من المسئوليين والصحافة ودفع نفقات ضيافتي بالفندق. أثناء العشاء الذي أعدته زوجة (جوليان ميفيلد) (آناليفيا) مسؤولة البرنامج الصحي لمقاطعة (أكرا)، غمرني الحاضرون بالأسئلة، أولئك السود الأمريكيون المهاجرون والذين آثروا الرجوع إلى أمهم الحبيبة أفريقيا. وفي غانا كنت أتمنى من كل زنجي أمريكي أن يشهد ذلك، ليس لحسن ضيافتهم لي، ليس كبطل نمت مآثره إلى أسماعهم، ولكن كرمز للنضال الأميركي الأسود الذي يستحق هذا التكريم.

وفي مؤتمر أقيم بنادي صحفي حشيد كانت الأسئلة تستفسر عن سر انشقاقي من السيد (أليجاه محمد) وجماعة (أمة الإسلام)، فقد سمع الأفارقة مثل هذه الإشاعات، وأن السيد أليجاه قد شيد له قصراً في (أريزونا)، فقمت بتصحيح هذه الحقائق الزائفة، فذكرت لهم أن جوهر خلافاتنا ينصب في تباين وجهات النظر فى بعض المسائل السياسية ، وفي موقف الدين ونظرته لحقوق الانسان ، فأنا أحترم جماعة أمة الإسلام كحركة روحانية متجددة وكمصدر لكثير من الإصلاحات الأخلاقية والإجتماعية، وأن فضائل أليجاه محمد على السود الأمريكيين حقيقة لا جدال فيها.

وقد أكدَّت للصحافة أهمية الحوجة للدعم والتواصل المشترك بين الأفارقة والأفارقة الأمريكيين ذوي الكفاح المغمور، في المؤتمر الصحفي كنت استخدم كلمة (زنجي)، فنُبهت إلى أن هذه الكلمة غير مستحبة هنا وأن عبارة (الأفارقة الأمريكيين) أكثر كرامة ولها وقع حسنٌ في النفوس، فاعتذرت لذلك. كما ذكرت في حديثي أن اثنين وعشرين مليون افريقي بأمريكا يمثلون قوة استراتيجية ضاربة للقارة الأفريقية والعكس هو الصحيح، فتستطيع الدول الإفريقية وعلى الصعيد الدبلوماسي أن تقف في وجه السياسة العنصرية بأمريكا. فكل الأمم الإفريقية ضد التفرقة العنصرية بجنوب إفريقيا، وضد القمع في المقاطعات البرتقالية، ولكن الأفارقة يضيعون أوقاتهم إذ استكانوا إلى أن (فيروورد) و (سيلاذار) و (بريطانيا) وفرنسا لا يألون جهداً في مصلحة الحكومة الأميركية، فلن يجدى شيء إن لم تتم تعرية (واشنطن. دي. سي).

وإنى على علم تام بأن (مينين وليام) رجل الدولة الأميريكية في زيارة رسمية إلى البلاد الإفريقية، وإني لأحذركم من هذا الرجل الذي يبتسم لكم نفاقاً، ويبخل بابتسامته على السود في بلادنا، كيف لا وأن أي أسود قتل في ولاية (متشقان) قد تم ذلك في مسمع ومرأىً من هذا الرجل الذي كان ذات يوم والياً عليها.

وفي مجمل ما لقيته من تكريم دُعِيت يوماً لمنزل الكاتب الراحل الأسود الأميركي (ريتشارد رايت) من قبل ابنته الحسناء الرقيقة الصوت (جوليا) والتي قام زوجها الفرنسي الشاب بتأسيس صحيفة (غانا)، ومؤخراً في باريس التقيت بأرملة ريتشارد رايت (إلين) وابنته الشابة (راتشيل).

تحدثت مع كثير من السفراء وقد وصفني السفير الجزائري (بالرجل الخلوق للنضال وصاحب الخيار الثوري الذي يجب أن يتبناه كل المضطهدين في العالم). وقد كان السفير الصيني (هوانق ها) رجل مناضل نافذ البصيرة، حيث ركز في حديثه معي على جهود الغرب لفصل الأفارقة عن الشعوب ذات الموروث الأفريقي. أما السفير النيجيري فقد كان شديد الاهتمام بمحنة السود الأمريكيين، فهو على علم تام بمعاناتهم وذلك بحكم دراسته وسكنه السابق في [واشنطن دي سي]. وكان أكثرهم تعاطفاً هو السفير المالي والذي كان بالأمم المتحدة بنيويورك. تناولت وجبة الأفطار مع دكتور (ماكونين) وتحدثنا عن أهمية انضمام الأفارقة الأمريكيين لوحدة (القومية الأفريقية).

كما تحدثت بإسهاب عن قضية الأفارقة الأمريكيين مع وزير الثقافة الغاني السيد/ (نانا كيتسيا). ذات مرة وعندما عدت إلى فندقي كانت في انتظاري هناك مكالمة تلفونية من نيويورك من (مى فودى) من شركة الإذاعة الأميركية، فسألني عن جماعة إخوة الدم في (هارليم) والمجموعات المسلحة للزنوج، وتطرق الحديث إلى مواضيع أخري كانت وراء شهرتي في عالم الصحافة الأميريكية.

وفي لقاء بالصالة الكبيرة لجامعة غانا خاطبت الجمع الغفير متمنياً في حديثي تواجد الكثير من البيض ، وقد حاولت قبل هذا اللقاء هدم الصورة الزائفة للإعلام الأميريكي عن حقيقة العلاقات الإثنية وتأكيد الحقيقة المأساوية للأفارقة الأمريكيين، وقد أثرت خطبتي في أولئك البيض حين قلت "لم أر في حياتي أناساً بيضاً أكثر رقة وحميمية للسود مثلكم يا معشر البيض بإفريقيا. ففي أمريكا يناضل الأفارقة الأمريكيون من أجل الاندماج والتفاعل الاجتماعي، فليأتوا هنا ليروا كيف قد تحقق ذلك، ولكن هل تستطيعون أن تقولوا الحقيقة للأفارقة أنكم في أمريكا تفعلون نفس الشيء، تبتسمون برقة للسود، حتماً لن تستطيعوا ذلك، فأنتم لا تحبون الأفارقة هنا بل تتملقونهم من أجل كنوزهم التي يزخر بها تراب أرضهم"، فاحمرت وجوه

البيض في ذلك اللقاء خجلاً، فهم يعرفون صحة ما أقول، فاسترسلت قائلا: "لست ضد أمريكا وما حضرت كي أدينها أرجو أن تدركوا ذلك، أتيت لأقول الحقيقة ولو أن الحقيقة في طياتها تدين أمريكا فلها ذلك".

وفي مرة دُعيت إلى حفلة أقامها على شرفي وزير الدفاع الغاني وقائد التجمع القومي فخامة السيد (كوفي باكو)، وهناك جدد الحاضرون سخريتهم بطريقة ضاحكة لما حدث في حفل سابق، حيث فضح فيه السفير الأميركي نفسه حين ظهر متكلفاً البشاشة والمرح على نحو سافر، قاصداً بذلك تفنيد كل ما ذكرته عن سلوكيات المجتمع الأبيض في أمريكا.

وجاءت السانحة الطيبة والتي حلمت بها، فقد تمت دعوتي لمخاطبة البرلمان الغاني، هناك وقفت موجزاً القول: "كيف تدينون البرتقال وجنوب إفريقيا وتلزمون الصمت حيال إخوتكم السود في أمريكا، فهم تعُضهم الكلاب ويضربون بالهراوات، وحقيقة الأمر أنكم يا معشر الإخوة الأفارقة قد سقطتم ضحية للإعلام المزيف"، وفي نهاية حديثي تجاوبت معي ردود الأفعال: نعم سندعم الأفارقة الأمريكيين مادياً وأدبياً وجسدياً إذا دعت الضرورة ولزم الأمر. وفي غانا كان أكثر ما لاقيته من تشريف لقاء تم مع دكتور (واهي كروما)، وقبل رؤيته تم تفتيشي بدقة، فأعجبت بالإجراءات الأمنية التي يحيط بها الغانيون قادتهم، فزاد احترامي لأولئك القادة السود الذين صنعوا الاستقلال لبلادهم، دخلت إلى مكتب الدكتور كروما، فخرج لي من وراء مكتبه مرتدياً زياً عادياً مرحباً بي، وعلمت بأنه على علم بمحنة الأفارقة الأمريكيين بحكم دراسته هناك. واتفقنا بأن (القومية الأفريقية) هي العلاج الناجع للأفارقة وذوي الثقافة والجذور الأميركية معاً، فتقاربت الأفكار، وقدرت فيه تواضعه الجم وحماسه الشديد وإنتهى اللقاء، ووعدته أن أبلغ خالص تحياته وتقديره للأفارقة الأمريكيين عند عودتي إلى أرض الوطن.

في تلك الظهيرة وفي (وينبا) وهي على بعد خمسة وثلاثين ميلاً، تحدثت في معهد كروما الأيدلوجي، حيث يُدرب مئتا طالب على النهوض والمضي قدماً بالمبادئ الفكرية للثورة. وهناك أيضاً تكرر نفس الموقف الاحتجاجي المتحمس للشباب الأفريقي والذي قدرته فيهم، فبعد حديثي وقف أحد الأمريكيين الأفارقة وهتف قائلاً (أنا زنجي أميركي) ثم استرسل في القول مدافعاً عن الرجل الأبيض الأميركي بحماس، فتحرش به الطلاب محاولين إسكاته، وعند نهاية اللقاء انفردوا بهذا الزميل وأمطروه بتعليقاتهم الجارحة "هل أنت عميل (الروكيفيلر)؟ ، توقف عن إفساد عقول أطفالنا!" ، فقد تبين أن الأخ معلم في مدرسة ثانوية خاصة، حيث كانت إحدى المؤسسات الأميركية خلف تعيينه بالمدرسة، "لقد جاء للمعهد بغية التعلم" علق أحد

الأساتذة محاولاً إنقاذ الشاب ولو مؤقتاً، حيث قام الطلاب بدفعه وطرده بعيداً وهم يرددون خلفه:" إذهب يا عميل الأمريكيين، إذهب ياعميل الـ (سي. أي. أيه)".

أقام السفير الصيني (هوانق هوا) حفلاً رسمياً على شرفي، وكان من المدعويين السفير (كوبان) والسفير الجزائري، والتقيت بالسيد (دي. يو. بايوس)، وبعد العشاء الفخم تم عرض ثلاثة أفلام، الأول فلم ملون يستعرض احتفال جمهورية الصين بعيدها الأربعين، وقد عُرض في هذا الفلم مناضل شمال كاليفورنيا السابق الأفريقي الأميريكي (روبرت ويليام) والذي لجأ إلى كوبا بعد مناشدته للسود الأمريكيين بحمل السلاح للدفاع عن أنفسهم. أما الفلم الثاني فقد ركز على الدعم الشعبي الصيني لكفاح الأفريقيين الأمريكيين، وقد عرض الفلم الرئيس (هاو. تيس. تونق)، وهو يصدر بيان التأييد والمناصرة، كما عرض الفلم مشاهد مأساوية لوحشية الرجل الأبيض ورجال الشرطة حيال الأفارقة الأمريكيين والمتظاهرين في عدد من المدن الأميريكية، مطالبين بالحقوق المدنية. والفلم الثالث والأخير كان بمثابة عرض مأساوي للثورة الجزائرية.

كما دفعت بي جمعية مالكولم إكس من السفارة الصينية إلى حفل ساهر أقيم على شرفي في النادي الصحفي، وكانت المرة الأولى أشاهد فيها الغانيين وهم يرقصون برُقيَّ ومرح، فألحوا علي أن ألقى خطبة قصيرة على الحاضرين، فأكدت مجدداً ضرورة الوحدة بين الأفارقة والأمريكيين الأفريقيين، في الختام صرخت من صميم قلبي: "لا أريد أن أفسد عليكم الرقص والغناء ولكن فقط أريدكم أن تتذكروا ما قلته، فلتذكروا مانديلا، فلتذكروا سويوكوي ولومبا في قبره، فلتذكروا مناضلي جنوب إفريقيا الذين تعج بهم السجون، والآن قد علمتم لماذا لم أشارككم الرقص، لأنني أردت أن أذكركم أن اثنين وعشرين من الأمريكيين الأفريقيين المضطهدين لا يستسيغون طعماً للفرحة والرقص". ولكن رغم ما قلته لهم كنت في حقيقة الأمر أرقص في داخلي، فهم في دعة كما نحن في أمريكا، حيث غنت إحدى الفتيات الحسناوات أغنية (القمر الأسود) مثل المغنية الأميركية (سارا قاوقان)، وكانت الجوقة الموسيقية تردد ما يشبه ألحان (ميليت جاكسون).

في صبيحة السبت علمت بوصول (كاسيوس كلى) مع حاشيته، وكان هناك استقبال عظيم في انتظاره بالمطار، كنت أعتقد أن لقاءنا سيسبب له كثيراً من الإحراج طالما أنه اختار ليبقى مع أليجاه محمد واتجاهه الإسلامي، ولم يحدث ذلك الإحراج فقد كنت مدركاً بأن (كاسيوس كلي) قد منع من الانضمام لركبي، فهو يعرف انني معه ولأجله وأعتقد بكل مبادئه، والذين تعمدوا إحراجه فيما بعد كانوا يعتقدون ضياع فرصته، فلذلك قررت أن أتجنبه حتى لا أضعه في هذا الموقف.

دُعِيت إلى وجبة غداء أقامها المفوض السامي النيجيري، وقد عاش الرجل في (واشنطن دي. سي) لمدة عامين، وحدثني عن معاداته للتمييز العنصري وعن صداقته مع الأفارقة الأمريكيين، وأكد على أهمية استمرار العلاقات بين الأفارقة والأفارقة الأمريكيين، ثم تطرق لمقال مسهب في صحيفة الهرايذ ون الأميركية عن (أمة الإسلام) كتبه دكتور (موروى)، وقد نُشرت في صفحة كاملة صورة لشخصي وفي الصفحة المقابلة الملك النيجيري المسلم (إستالورات) وأردف قائلاً: "عندما رأيت الصورتين علمت أنهما لرجل واحد، والفرق الوحيد أن هذا مولود في أمريكا وذاك مولود في إفريقيا". وقد كنت فخوراً بهديته والتي تمثلت في الرداء النيجيري الأزرق والعمامة البرتقالية، وهديته الغالية والتي تمثلت في ترجمة كاملة للقرآن الكريم.

وبعد ذلك دعتني السيدة (شيرلي جرهام ديويويس) لرؤية المنزل الذي قضى فيه زوجها دكتور (ديويويس) آخر أيام حياته وقد كان مديراً للتلفزيون الغاني، فعندما حضر ديويوس إلى غانا على حد قولها، قام (كروما) بتشريف هذا المناضل والعالم الأفريقي الأميركي كالملك وإعطائه كل ما يريد، وعندما لزم فراش المرض قام كروما بزيارته ووداعه وداع الفراق، فقد كان كل من الرجلين متيقناً بوفاة الآخر في القريب العاجل، فخرج كروما والدموع على عينيه. كما كانت آخر المناسبات الاجتماعية في غانا حفلة أقامها السفير الكوبي في غانا سعادة (أرماندو إنترالقو قونذاليز).

في صبيحة يوم الأحد كانت جمعية مالكولم إكس في انتظاري بالفندق لمرافقتي إلى المطار، وعندما غادرنا الفندق قابلنا (كازيوس كلي) مع حاشيته، فقد كان عائداً من نزهته الصباحية، وكان متردداً في القول وفاجأني بعبارات الترحاب المتقطعة مثل "كيف حالك" فأجبته "على أحسن حال". وبعد ذلك أرسلت له رسالة ذكرته فيها كم هو محبوب من المسلمين أينما حل، وأن لا يسمح لأحد استغلاله أو الاستعراض به لتشويه صورته. وفي مطار (أكرا) قمت بوداع (جمعية مالكولم إكس) وخمسة من السفراء.

وفي الطائرة حيث كنا متجهين إلى (مونورفيا) و (ليبريا)، جالت في خاطري حصيلة ذكرياتي في الأراضي المقدسة والتي سأحملها إلى الشعب الأميركي، وسأخبرهم أيضاً بصحوة إفريقيا ووعيها بأن ثرواتها الطبيعية مصدر قوتها وأهمية دورها القادم. ومن مونورفيا طرت إلى (داكار) ثم السنغال، حيث اصطف السنغاليون لاستقبالي بالمطار، فحدثتهم بأن اللغة العربية مهما وقفت حائلاً فإن الإسلام في قلوبنا، كما ذكرتهم عن موقف إخوتهم الأفارقة الأمريكيين. ومن داكار

طرت إلى المغرب سائحاً فيها، فزرت (الكذبة) الشهيرة، حيث تجُسم آلافٌ مؤلفة من الأحياء الفقيرة أشبه بهارليم، وقفت شاهداً على التمييز العنصري للمستعمر الفرنسي حيث منع الأهليين من إرتياد مناطق معينة من [الكاذبلانكا] .

كان عيد ميلادي في يوم الثلاثاء الموافق 19 مايو 1964، وقد صادف ذلك وصولي إلى الجزائر، حيث أُخذت بمنظر المياه الجارية تحت الجسور. حدثني سائق التاكسي في طريقنا إلى فندق (أليتى) عن الفظائع التي ارتكبها الاستعمار الفرنسي, طفت بأرجاء المدينة، وكانت تصلني التعليقات الناقمة للموقف الأميريكي في دعم الطغاة الفرنسيين المعتدين على الجزائريين. فيالهم من ثوار أصيلين، هاجمهم الموت فتلقوه بجسارة.

على متن الرحلة (115) وصلت إلى مطار كنيدي بنيويورك وعندما رأيت جمهرة من المصورين والمراسلين الصحفيين، ظننتهم كانوا معي بالطائرة، ولكن كم كنت مغفلاً، فهم جاؤوا لمقابلتي من داخل أمريكا بعد أن ملأت شهرتي الآفاق.

في مدينة هارليم ومدن أخرى بالولايات المتحدة كان صيف 1964م الطويل يُنبئ عن أحداث كبيرة، فتوالت المقالات تنعتني [موقد الثورة والعنف القادم للسود]. ومن المؤتمرات الصحفية هاجمتني الأسئلة على النحو التالي:

السيد/ مالكولم إكس من هُم إخوة الدم المزعوم انتمائهم لمنظمتكم؟، أو فلنقل الذين نالوا قسطاً من التدريب بمنظمتكم؟ والذين قتلوا أناساً أبرياء من البيض؟.

السيد/ مالكولم إكس: ما هو تعليقكم على أحقية الزنوج لتكوين مجموعات مسلحة؟، فأجبت إجابة من عاد إلى وطنه زنجياً من جديد، حائراً بين أسئلة البيض و اللاموضوعية التي تبحث عن كبش يفديها ، تدين الأفعال ولكن لا تستفسر عن الدوافع ، "فعندما يقتل الشباب البيض ضحاياهم من المجتمع الأسود يعد الأمر ظاهرة اجتماعية يجب أن تعالج في إطارها العلمي لإيجاد الدوافع والحلول، ولكن عندما يحدث العكس، يقتل الشباب السود من يقتلون من البيض يتحيز النظام السلطوي وينادي بمعاقبة الجاني. وعندما يُشنق الأسود جزافاً أو متلبساً يقال ذلك من أجل تحسن الأمور، وعندما تتوافر الأدلة بامتلاك البيض للأسلحة النارية، يقال ذلك حق دستوري مكفول لحماية أنفسهم وأعراضهم. ولكن عندما يطالب السود بامتلاك الأسلحة النارية لحماية أنفسهم، يعد ذلك نذيراً للشؤم وتوطئة للاعتداء".

ثم دفعت إلى جمهرة المراسلين ما لم يكن بحسبانهم، فذكرت أن السود الأمريكيين قد آن لهم الأوان لنبذ ما ساموه من عذاب واللجوء إلى كل الخيارات المتاحة بدلاً عن استجداء ما يسمى بـ [الحقوق المدنية] من الرجل الأبيض وهو سادر في غيه.

فللسود فرصة عظيمة لحمل قضيتهم إلى منبر الأمم المتحدة واتهام الولايات المتحدة بإنكار الحقوق المدنية، وطالما أن كلاً من أنقولا وجنوب أفريقيا أمثلة حية أمام الأمم المتحدة، فلن تستطع الولايات المتحدة الهروب من الرقابة.

وكما كنت متوقعاً هربت الصحافة عن الخوض في الموضوع، واتجهت الأسئلة تستفسر عن رسالتي من مكة، فقلت في ذلك: "أولاً أتمنى وإلى الأبد أن يكون حجي إلى بيت الله الحرام قد وطد دعائم انتمائنا الديني الأصيل إلى 750 مليون، هم تعداد المسلمين حول العالم، ثانياً تأكد لي وإلى الأبد أن أخواننا الأفارقة ينظرون إلينا نحن الاثنين والعشرين مليون أسود أميركي كإخوان لهم فقدوهم طويلاً، إنهم يحبوننا، قد علموا بكفاحنا من أجل الحرية، إنهم سعداء لأننا استيقظنا أخيراً من سباتنا الطويل والتفتنا إليهم، بعد أن لفظنا عقدة الخجل من أصولنا الإفريقية، والتي طبعها في عقولنا المسيحيون البيض.

نعم أرسلت رسالة من مكة، وأنتم تقصدون السؤال: هل ذكرت في مضمون رسالتك أنك عُدت تحترم الرجل الأبيض؟، نعم ففي العالم الإسلامي توسعت مداركي ونفذت بصيرتي لما رأيت وسمعت هناك، فلقد عايشت أوقاتاً من الأُخوة الصادقة مع كثير من البيض المسلمين، والذين ينظرون إلى بعضهم دون منظار الجنس أو البشرة، فلقد رأيت في الحج ما لم أراه هنا عبر الثلاث وثلاثين سنة الماضية.

نعم في الماضي كنت أحمل الكراهية لكل البيض، وسوف لن أتمادى في ذلك طالما أن الزمن علمني أن بعض البيض لا يستحق ذلك، فبعضهم قادر على التعبير عن محبته للسود، فقد علمني الإسلام أن تعميم الكراهية لكل البيض إثم يجب أن لا يرضاه المسلم الأسود طالما أنه لا يقبل ذلك من الرجل الأبيض، نعم أنا على يقين من أن بعض البيض الأمريكيين ساعون لاستئصال هذا الوباء العرقي والذي في طريقه إلى هدم وحدة هذه البلاد. وطالما أن موقفي قد تغير في الأراضي المقدسة لما وجدت هنالك، وطالما أنني قد عدت راجعاً إلى أرض الوطن، فإن موقفي الجديد سيحكم بما سألاقيه هنا أنا وإخوتي السود، وما سنشهده من أخوة. والغريب في أمريكا أن بها قلة من الأفراد لا قوة لهم يمكن أن نسميهم (الطيبين)، أو (إخوتنا البيض)، ولكن هنا في الولايات المتحدة يجب أن ننظر إلى الأمر بمنظار كلي: إن اثنين وعشرين مليون أسود وهم قلة، يضطهدهم مائة وخمسون أبيضاً، وهم الأغلبية، لماذا تتأصل بذرة النزعة العنصرية والإستعلاء العرقي في العقل الجمعي للمجتمع الأبيض الأميريكي؟، هل لأن ذلك متأصل في اللاوعي الجماعي؟، فكثير منهم لا يدركون مدى نزعتهم العنصرية، حتى يصطدمون بلحظة الامتحان العسير، فتنفذ الحقيقة من أعماقهم إلى السطح بتلقائية ولها عدة أشكال.

فاسمعوني جيداً إن ما يلاقيه السود هنا هو ما دفعهم إلى تعميم الحكم قبل اختلاطهم مع الأجناس الأخرى غير البيضاء، إن الرجل الأبيض لا يستطيع التخلي عن طبعه البديهي بازدراء الآخرين غير بنى جنسه، بينما نجد أن شعوب العالم غير البيضاء ساخطين على أفعاله هذه، و خير مثال لذلك الشعب الفيتنامي ، و إذا استرسلت في قولي ؛ فهنا في (هيمسفير) الغربية فإن عشرة مليون من أصل إفريقي يضربون بعضهم البعض في الهند الغربية والبرازيل وكوبا وفنزويلا وأمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى والقارة الإفريقية، في كل هذه البلاد المليئة بالدماء الإفريقية، للرجل الأبيض مناورات شتى للايقاع بين السود الأمريكيين والسود الأفارقة والعرب السمر، والإيقاع بين مسلمي إفريقيا ومسيحييها، فتصوروا بأنفسكم ما الذي سيحدث إذا عززت الشعوب ذات الموروث الإفريقي أواصر الدم بالوحدة من أجل تحقيق أهدافها المنشودة" .

وفي نهاية حديثي كنت أعلم أن الصحافة ستبحث عن مخرج لما لم يكن في حسبانهم من حجية القول، وأن إخوتي بإفريقيا وأمريكا يعلمون أنني قد فعلت الصواب، فعلى طول الليل كنت أستقبل عبارات التهنئة منهم ومن إخوتي السود بنيويورك وغيرها على ما سمعوه عبر الراديو والتلفزيون، وكثيراً من الناس وأغلبهم من البيض كانوا يتساءلون هل أنوي الحديث مجدداً؟ متى وأين ذلك؟.

في اليوم التالي كنت مستقلاً سيارتي، وعند الوقوف بالإشارة الحمراء اقتربت مني سيارة تقودها امرأة جلس بقربها رجل أبيض فبادرني قائلاً "مالكلولم إكس" وعندما التفت إليه مد يده خارج السيارة مبتسماً وهو يقول "هل ترغب في مصافحة رجل أبيض؟" ، وأذكر أن رَّددت قائلاً في اللحظة التي أضاءت فيها الإشارة الخضراء: "لا أريد أن أصافح إنساناً, هل أنت إنسان؟" .

الفصل التاسع عشر

1965

استلهاماً من تجاربي السابقة، يجدر بي القول صدقاً وصراحةً أن إخوتي الزنوج دون كافة الأفارقة الأمريكيين لا يستهويهم الدفع بقضيتهم إلى الأمم المتحدة، فقد نجح البيض في غسل أدمغتهم وتهوين الأمر واعتباره مسألة داخلية تتعلق بالحقوق المدنية، وأدركت أن الدرب ما زال طويلاً حتى يؤمن الزنوج بالخروج بقضيتهم للعالم الخارجي.

وإني على يقين أن الزنوج لن يهتدوا إلى هدى الإسلام الذي علمني ذات يوم أن البشرية بمختلف أجناسهم يمكن أن يعيشوا إخوة، إن قومي الزنوج ولا سيما جيل الآباء غارقون حتى آذانهم في مستنقع المسيحية ذي المعايير المزدوجة في الحكم على القمع والاعتداء الأبيض.

فلذلك وفي اللقاء المفتوح الذي اعتدت على إقامته في يوم كل أحد بمرقص (أودوبون) الشهير والمعروف بهارليم، وعندما كنت مخاطباً جمهور الزنوج غير المسلمين، لم أحاول أن أفرض الدين الإسلامي مباشرة على الحاضرين من كافة الطوائف غيرالمسلمة، فقد كنت أوجه حديثي للسود في كل أرجاء المعمورة، والسود الأمريكيين بالأخص، لأننا جميعاً محرومون من حقوقنا المدنية والإنسانية مما يدفع بنا النهوض لانتزاع كرامتنا السليبة.

بعد انتهاء اللقاء وفي طريق عودتي تباينت ردود الأفعال، فتلمست أمارات الرضا في الملامح والأصوات، فمنهم من صافحني بحرارة ومن طلب توقيعي الشخصي، فلقد تلمست فيهم موقف المتفرج المتعاطف الذي لا يحرك ساكناً، فقد كنت متيقناً من شكهم وريبتهم في امكانية النهوض والمصادمة لنيل الحقوق.

فلا جناح عليهم، فمنذ الحرب الأهلية الأميركية الداعية إلى الحرية، سلك السود الأمركيون مسارات لا طائل من ورائها، فقد خيب ظنهم قادتهم وموقف الدين المسيحي، فتقيدوا بقيود الرهبة والحذر.

وفي الأراضي المقدسة وبعيداً عن التفرقة العنصرية توفرت لي الأسباب وكانت المرة الأولى التي تستطرق أفكاري مكونات المجتمع الأبيض الأميركي، مواقفهم ودوافعهم ومدى تأثر الزنوج بذلك. ففي مسيرة حياتي ذات الخمس والثلاثين سنة، كانت الأراضي المقدسة هي المكان الوحيد الذي وقفت فيه أمام الخالق وشعرت عنده بإنسانيتي.

هناك في الأراضي المقدسة عندما استلقيت في نوم وادع مع إخوتي من الحجيج ، ردني ذلك إلى بعض الذكريات الخاصة والتي ما زالت عالقة في ذهني، هناك في الماضي البعيد عندما كنت صبياً في الثامنة أو التاسعة من عمره، متجولاً في أرياف (لآنسن) و (ماتشجن)، كان ثمة تل أخضر معشوشب يسمى (هيكتور)، كنت أجلس على قمته متأملاً السحب العابرة في صفحة السماء، فتجدد لي نفس الموقف والأحاسيس في الأراضي المقدسة.

كما طافت بي الذكريات إلى أيام السجن عندما كنت وحيداً في الزنزانة ، فكم تصورت نفسي مخاطباً جمعاً غفيراً، ولم أعرف حينذاك سبباً لمثل تلك المشاعر الضارية وغمرة سطوتها دون سابق إنذار لقدومها.

وفي مكة أيضاً استرجعت ذكرى الاثنتي عشرة سنة التي قضيتها مع أليجاه محمد وكأنها صور متحركة، فقد كان اعتقادي في هذا الرجل خارجا عن حدود المعقول، ليس كقائد تمليه الحقيقة والظروف العادية ولكن كقائد مقدس معصوم من الضعف والأخطاء البشرية، فهنالك في قمة عرفات بالأراضي المقدسة، أدركت كم هو أمر خطير أن نحيط أياً من البشر مثلنا بهالة من القداسة أو نعتقد أنه ملهم من السماء ومنصور منها.

فتوسعت مداركي هناك في مكة فأرسلت إلى أصدقائي السود معبراً لهم عن أبعاد أفكاري الجديدة، ومدى ما توصلت إليه في السعي وراء الحقيقة العادلة، فذكرت أنني للحقيقة بغض النظر عن مصدرها وللعدل بغض النظر عن هويته وأهدافه، فأنا إنسان في المقام الأول وإلى الأبد ولخير البشرية جمعاء.

وبالطبع فإن الصحافة سوف تتردد في إبلاغ رسالتي طالما أنها تهدى الزنوج إلى الطريق الجديد. ففي صيف عام 1964م الطويل الحار أضيفت إلى اتهامات جديدة، قصدوا بها تحريضي للزنوج وحثهم للعنف، فجاء صوتي الدافق عبر التلفزيون والمذياع مفنداً كل هذه الإتهامات:-

أولاً: أن الظلم الاجتماعي المتمثل في البطالة يقود إلى سحب فتيل الأزمة ومن ثم انفجار الأوضاع.

ثانياً: أن السكن السيء والتعليم المنحط لسكان الأحياء الفقيرة، في مثل هذه الأوضاع مقدر لفتيل أزمة الانفجار في أزمنة موقوتة من تلقاء نفسه دون الحوجة إلى سحبه.

وقد وُصمت بـ (أشد الزنوج الأمريكيين غضباً)، فلا أنكر ذلك، فأنا أؤمن بالغضب أولم يقل الإنجيل (للغضب وقت)؟، فأنا أغضب متى ما شعرت بذلك. كما نادوني بـ(معلم العنف)، وأقولها صراحة، إن هذه كذبة، فأنا لست للعنف الوحشي بل لتحقيق العدل، فلو هاجم السود البيض وتقاعست يد القانون لأي سبب من الأسباب فعلى البيض حينها حماية أنفسهم مستخدمين السلاح عند الضرورة، ولكن بنفس القدر إذا تقاعست يد القانون عن حماية السود من هجمات البيض فعلى السود أيضاً حماية أنفسهم ورد ذلك العدوان بحمل السلاح إن أمكن ذلك وعند الضرورة. فهذا هو العنف الذي قصدته، فهو عنف موقوت وتبرره عدالة القانون.

مالكولم إكس يدافع عن الزنوج المسلحين!! فما هو الخطأ في ذلك؟، سأحدثكم عن هذا الخطأ: أنا رجل أسود يتحدث عن استنفار الجهود المادية ضد الرجل الأبيض، فالرجل الأبيض يستطيع أن يشنق، أن يحرق، أن يفجر، أن يضرب الزنوج ولكن للصبر حدود، فأنا أدين وأجرم كل من اعتدى عليه ثم استكان لقبول ذلك دون أن يبذل جهداً دفاعاً عن نفسه، ولو كانت هذه تعاليم غاندي والمسيح، فيا لها من تعاليم مجرمة. حاولت في كل خطبة أن أوضح موقفي الجديد حيال المجتمع الأبيض، ولا أقصد بذلك أن أنكر وفاء بعضهم وصلاحهم، وأومن تماماً أن من واجب الزنوج أن يقاتلوا هؤلاء العنصريين بكل ما أوتوا من قوة.

وقد آثر المراسلون الصحفيون أثناء سردي لتلك الحقائق أن أكرر كلمة (عنف)، ولا أعتقد أنني قد تجاهلتها في كثير من الحوارات الصحفية، فأنا مع العنف لو أن (اللا عنف) يعنى أن نتأنى في نيل حلول حاسمه لقضية السود الأمريكيين، فلعمري إن إرجاء سبل الحلول والتقاعس عن حل القضية هما وجهان لعملة واحدة، أي بمعنى آخر: لو أن العنف يؤدي إلى نيل الحقوق الإنسانية فليحيا العنف، وهذا ماسيفعله اليهود والإيرلنديون وغيرهم لو كانوا في مكان السود ومُورست عليهم التفرقة العنصرية، لكانوا قد لجؤوا إلى خيار العنف مهما تكن العواقب.

إن مجتمع البيض يكره الاستماع إلى الآخر (خصيصاً السود) متحدثاً عن الفظائع التي ارتكبوها في حقه، فأنا أعرف لماذا أُنادي دوماً بـ(الثوري) فهذه العبارة توحي بارتكاب جريمة، فإن عبارة (الثورة) تقابلها في اللغة الألمانية كلمة (أموالزنق) وهي تعني الانقلاب والتغيير الكاملين، عليه فإن انقلاب العسكريين على الملك فاروق في مصر خير مثال لذلك، فهي بذلك تعني تحطيم الأنظمة القديمة واحلال النظم الجديدة. ومثال آخر للثورة ما قام به الإخوة الجزائريون بقيادة (بن بيلا) بالإطاحة بالفرنسيين الذين داموا في سدة الحكم ما يربو على المائة عام.

فعندما يقوم الزنوج الأميريكيون بالثورة فهم يدينون النظام ولا يسعون بذلك إلى هدمه وتغييره، إن الزنوج وإن كانوا (ثواراً) هم فقط يطالبون باستيعابهم في النظام الحالي، بينما لو كانوا ثواراً حقيقيين مثل غيرهم، لفرضوا بثورتهم حق إمتلاك ولايات منفصلة لهم من المجتمع الأبيض في هذه البلاد، وقد وقف خلف هذا المطلب كثير من الأفراد والجماعات السوداء من قبل مجيء أليجاه محمد.

وعندما جاء الرجل الأبيض مستعمراً هذه البلاد فهو بالتأكيد لم يرتكب أي (عنف) لو صح ذلك، ولكن في حقيقة الأمر أن الرجل الأبيض والذي يرمز اسمه إلى (اللا عنف) ذكر الحقيقة المُرة عن هوية المجتمع الأبيض الأميركي حيث قال: "ولدت أمتنا على أنقاض القتل الجماعي منذ أن تبنت مبدأ أن السكان الأصليين بأمريكا (جنس أدنى)، وذلك من قبل وفود الألوف المؤلفة من الزنوج المجلوبين إلى الشواطئ الأميريكية، حيث كانت بوادر التحامل العرقي قد شوهت المجتمع الاستعماري، فمنذ القرن السادس عشر وما تلته من القرون، سُفكت الدماء من أجل الاستعلاء العرقي، فنحن الأمة الوحيدة التي اتخذت استئصال السكان المحليين سياسة قومية للدولة، وقد زينا هذه التجربة المأساوية في شكل حملات نبيلة، وحتى اليوم نحن عاجزون عن الشعور بالخجل لهذه المتوالية التاريخية المخجلة، فإن أدبنا ومسارحنا وأفلامنا السينمائية وحتى أدبنا الشعبي لم ينجُ من ذلك، فما زال أطفالنا يربون على العنف الذي أضعف ذوي البشرة الحمراء أصحاب الثقافة الأولى، فصيرهم حفنة من الجماعات المتفسخة تصارع هنا وهناك من أجل البقاء.

(التعايش السلمي)، هذا شعار آخر كثير ما ينادي به الرجل الأبيض، حسناً ماذا كان الرجل الأبيض يفعل عبر مسيرته في مراحل التاريخ ؟ 0 كان يلوح براية المسيحية في يده اليسرى والسيوف والأغلال في يده اليمنى.

ولنذهب بعيداً في أعماق التاريخ عند بداية الديانة المسيحية، فإن الكاثوليكية أصالة الدين المسيحي ذات التسلسل الهرمي للرتبة الكنسية، خرجت من القارة الإفريقية على أيدى من سمتهم الكنيسة نفسها (قساوسة الصحراء)، فالكنيسة المسيحية قد تأثرت بالعنصرية منذ أن اعتنقها الرجل الأبيض الأوربي، ثم عادت الكنيسة المسيحية إلى إفريقيا تحت غطاء الفتوحات الصليبية والاستغلال والاغتصاب والقتل وترسيخ سيادة الجنس الأبيض. هذه هي الكيفية التي استطاع بها الرجل الأبيض سيادة العالم وقيادته عبر القوة المادية المجردة، وقد كان مجرداً تماماً من القيم الروحية، عكس ذلك، فقد شهد التاريخ على مر العصور أن المعيار الحقيقي للسيادة والاستعلاء هي القيم الروحية للسيد أو المستعلي، وذلك لأن الإنسان بطبعه ينجذب

من تلقاء نفسه إلى ما يحمله الآخر من قيم، فإن القوة تجبر ولا تجذب الآخر، ومن الروح يُولد الحب، ومن القهر يولد القلق.

وأنا أتفق مع هؤلاء العنصريين الذين يدعون أن القانون لا يفرض مبدأ الأخوة، عليه يكون الخيار الأوحد والباقي أمام العالم هو نظام حكم يقوده دين يؤمن بالقيم الروحية، هنا في أمريكا ذات الأوصال العرقية المتمزقة، أنا أومن بالحوجة الماسة إلى الدين الإسلامي وخاصة من أجل السود الأمريكيين، آن للرجل الأسود أن يعي بأن انتماءه للدين المسيحي ووفاءه له قد دفع به إلى قبضة الرجل الأبيض وتأويله لحقيقة الدين المسيحي.

فإلى أين ساقت المسيحية العالم؟ ، قادت ثلث سكان العالم من الشعوب غير البيضاء إلى الثورة والتمرد، فأخرجوا الرجل الأبيض واستعماره من ديارهم، وبعد خروجه ارتدت كل الشعوب غير البيضاء إلى أديناهم الأصلية من قبل مجيء المسيحية والتي كان يصفها الرجل الأبيض (الأوثان)، دين واحد استطاع أن يقف أمام المسيحية الآلاف من السنين الماضية هو الدين الإسلامي.

فهاهم الأفارقة يعودون إلى الإسلام وأديانهم المحلية، والآسيويون يعدون إلى البوذية والهندوسية والإسلام.

فكما اتجهت الحملات الصليبية نحو الشرق، فها هي ذي الحملات الإسلامية تتجه نحو الغرب وشرق آسيا جنباً إلى جنب مع المسيحية، و في إفريقيا التي ارتدت إلى الإسلام بسرعة، والغرب الذي سريعاً ما أصبح غير مسيحي.

عموماً يمكننا القول أن الحضارة المسيحية لأمريكا والتي نشأت لتمكين العرق الأبيض لم تصبح إلا بقايا معاقل صلدة للدين المسيحي.

لو صح القول، فإن ما تسمى بالمسيحية والتي تمارس اليوم بأمريكا، ليست في حوجة إلى إقناع أي بشر سوى في كامل عقله بنهايتها، فهل تعلمون أن بعض علماء اللاهوت البروتستانت في كتاباتهم كانوا يستخدمون عبارة (عهد ما بعد المسيحية) وكانوا يقصدون بذلك يومنا هذا.

فما هو السبب خلف هذا الفشل المسيحي الكبير، هل هو لفشلها في القضاء على العنصرية؟، فكما ذكر في القصة القديمة (احصد ما زرعت)، فإن الكنيسة المسيحية قد زرعت العنصرية وهي الآن تحصد ثمار ما زرعت. صورت (الصندى مورنق) في هذه السنة حشد من المصلين تحت حراسة قساوسة يوصدون الأبواب بالقضبان أمام جمع من العابدين السود قائلين لهم، "لا يمكنكم دخول بيت الله هذا".

فياله من قدر ساخر أن أصبح شارع القسيس (أغسطين) في الأمس القريب مسرحاً للشغب العنصري الدامي ، وقد سمى على اسم ذلك القس الإفريقي الأسود الذي أنقذ الكاثوليكية من البدع والهرطقة.

وأنا لشديد الإيمان أن الله يعطى ما أسميه (مسيحية المجتمع الأبيض) فرصتهم الأخيرة بدفعهم للتوبة مما اقترفته أيديهم من جرائم استغلال واستعباد الشعوب غير البيضاء، كما أعطى من قبل فرعون مصر فرصة للتوبة بإنصاف من ظلمهم فتمادى في غيه فقضى عليه في نهاية الأمر.

ثم ماذا بعد ذلك؟ هل يا ترى يأسف المجتمع الأبيض الأمريكي على جرائمهم ضد الشعب الأسود؟ ، وهل يستطيعون التعويض؟ ، وهل التوبة مولودة في معظمهم أو في ثلثهم أو نصفهم؟ ، إن كثيراً من السود الضحايا بل أغلبهم يريدون أن يغفروا ثم ينسوا هذه الجرائم، ولكن البيض عكس ذلك ، كيف يعتذر المجتمع الأبيض عن فظائعه عبر العصور؟ ، أي اعتذار له يكفله له العدل عن استغلال عرق جبين السود وسلب حياتهم وتاريخهم وثقافتهم وهويتهم وكرامتهم الإنسانية؟ ، إن التعويض الحقيقي يجب أن لا يتمثل في الممارسات الابتزازية للتعبير عن الوحدة المنشودة، فالاندماج في المسارح والحمامات العامة وغير ذلك قطعاً ليس هو المنشود.

أمضيت ثمانية عشر أسبوعاً أو يزيد متجولاً في إفريقيا والشرق الأوسط فاجتمعت مع كثير من زعماء العالم، مثل جمال عبدالناصر في مصر، نايبري في تنزانيا وكروما في غانا وغيرهم، وكثير من القادة الدينيين المسلمين وغير المسلمين، وفي كل هذه البلاد إلتقيت بأناس من مختلف الأجناس ومن بيئات ومهن مختلفة.

وحدثني أحد القادة الأفارقة المعروفين أن أحد السفراء البيض الأمريكيين في أحد الدول الأفريقية يعد الأكثر احتراماً في الأمريكيين، فهو وبطول إقامته في أفريقيا لم تبدر منه أي معاملة أو ما ينم عن النزعة العنصرية، فبناء على ذلك أصدقه القول، نعم فهو لا ينظر إلى الألوان وكان كثير الإلمام بمختلف اللغات أكثر من الاهتمام باختلاف الأجناس والألوان، ولكن لماذا فقط عندما يعود إلى أمريكا يفعل كل ذلك؟ فأجبته مستطرداً، "من تتحدث عنه ليس بالرجل الأبيض العنصري، ولكنه رجل الاقتصاد والسياسة والمناخ الأميريكي، أنه رجل دولة، والذي يقوم وبطريقة تلقائية في بذر الروح العنصرية في عقلية الأبيض". واتفقت مع ذلك القائد الأفريقي على أن مجتمع البيض جعل من المستحيل لأي بشر تطأ قدمه أمريكا دون الاصطدام بالتميز العنصري ، واتفقنا أيضاً أن العنصرية يمكن أن تزال، وأن أمريكا قادرة على صناعة مجتمع يتساوى فيه الأغنياء والفقراء.

وأعترف أن حديثي مع السفير قد أضاف لي بُعداً آخر وبصيرة نافذة بأن الرجل الأبيض ليس شريراً بالفطرة، ولكن المجتمع الأميركي قد أثر عليه سلباً ليكون عنصرياً، وأن المجتمع قد صنع ونمى سيكولوجيته مما أدى ذلك إلى هيمنة الجانب السلبي على صفاته البشرية الأخرى.

ولكن كان لي موعد مع رجل مختلف عن البيض، إلتقيت به في إفريقيا والذي يجسد كل ما قلناه أنا والسفير، فخلال رحلتي كنت على يقين بأنني تحت المراقبة الدائمة، وقد كان العميل رجلاً واضحاً لي، رجلاً مقيتاً جداً، ممن يدخل بين (الأظفر والجلد) كما يقولون، فلم أدخل فندقاً سائلاً عن طعام إلا ورأيته في مكان ما يراقبني، ولا تحسبوني (جون ديلنفر) أو أي شخص آخر عندما ذهبت ذات مرة إليه مباشرة وأخبرته بمراقبته لي، وإذا أراد أن يعرف شيئاً عني فلماذا لا يسألني مباشرة، فأجابني بأن لا يرغب في الهبوط إلى منزلتي وما أحمله من منطق وأفكار، فحدثته مباشرة بأنه غبي، لأنه لا يعرفني ولا يعرف ما جئت لأجله، وأنه من النوع الذي يقع في شراك الآخرين ليفكروا له، فليس من الضرورة للمرء أن يعرف ما وظيفته ولكن على الأقل يجب أن يعرف كيف يفكر0 فتفاجأ لقولي وأخذ يردد بأنني ضد وطنه أمريكا، وأنني مشاغب ومخرب وشيوعي، فأخبرته بأن ما يقوله ينم عن جهله التام بي، وأن الشيء الوحيد الذي يمكن أن تدينني به الـ (إف. بي. أي) إن صح هو انفتاح عقلي، فأنا أبحث عن الحقيقة، وأحاول جاهداً أن أوازن بموضوعية كل أشكالها وتجلياتها، فأنا ضد التفكير الضيق والمجتمع الأضيق، وأحترم حق أي إنسان أن يعتقد في كل ما يقوده إليه ذكائه بصحته، وكنت أتوقع أن يحترم الآخرون حقي فيما آمنت به. ثم استطردت قائلاً له "أولم يحدثك رؤساؤك أن موقفي ومبادئي قد تغيرت، وأن الإسلام الذي أومن به الآن هو الإسلام الذي تعلمته في مكة بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً بن عبدالله الذي ولد في مكة قبل أربعة عشر قرناً هو آخر الرسل" .

ومنذ البداية كان ينتابني هاجس عن هوية ذلك العميل الخارق للعادة، فمن مُجمل حديثه معي استنتجت ما فاجأته به قائلاً " أعتقد أنك يهودي باسم إنجليزي مستعار" فنبأتني تعابير وجهه بأنني قد أصبت الحقيقة، فسألني كيف عرفت ذلك؟ ، فأخبرته بأنني وعبر خبرتي الطويلة مع اليهود عرفت أساليبهم في الهجوم، وكل ما أعرفه عنهم أن معظمهم منافق في ادعائهم الوقوف بجانب السود الأمريكيين، ودائماً ما يصفونني بـ(عداء السامية) وأنا مستيقنٌ تماماً بأن كل ما أقوله عنهم هو الحقيقة العارية، نعم أعطيت اليهود الشرف باحتسابهم من المجتمع الأبيض الأميركي، بل أكثرهم حماسة ونشاطاً فيه، فهم القادة الاقتصاديون والتحرريون في حركة الزنوج لنيل الحقوق المدنية، ولكني على يقين أن اليهود يقومون بهذا الدور لأسباب

استراتيجية جيدة الحبك والصياغة، فبقدر ما تزداد الكراهية ضد الزنوج، بقدر ما ينصرف الكفرة البيض عن كراهيتهم لليهود، والدليل على ذلك أن الحقوق المدنية التي وضعها اليهود كانت كاذبة، ففي الشمال نجد أن أشد العنصريين وبالاً على السود هم اليهود أنفسهم، فأنظر فإن كل ما يطالبون به السود ويسعون إليه هو الاندماج، فلنفرض أن اليهود لم يكونوا معنيين بالأمر أو كانوا في وضع أحسن من ذلك وكانت لهم النفوذ والغلبة الحالية، هل كانوا باذلين الغالي والنفيس في سبيل نصرة هذه القضية أو استغلال نفوذهم؟ ، بالطبع ما كان ليحدث ذلك، وأوضح دليل للكيفية التي ينظر بها اليهود إلى الزنوج، ما يحدث عادة عندما يقطن الزنجي بالقرب من جوار يقطنه اليهود، مَن مِن الأجناس البيضاء يقود عملية الترحيل من هذا الجوار؟ ، هم بلا شك اليهود، فهم دوماً ما يأخذون بزمام المبادرة في مثل هذه المواقف، قليل من البيض يفضل البقاء وهم الكاثوليك الإيرلنديون والايطاليون ونادراً ما يتوسط اليهود هذه الفئات. وبالسخرية القدر يحدث كل ذلك واليهود أنفسهم يعانون من معضلة عدم الاعتراف بهم في المجتمع الأميريكي الأبيض.

بعد قولي هذا كنت أتوقع أن أسمع (عداء السامية)، ولكن مهما يكن فالحقيقة هي الحقيقة. وكانت السياسة تطغى على المشهد الأميريكي وأنا مسافر بعيداً عن أرض الوطن. في القاهرة وأكرا، سألتني الصحف الأميركية عن من أحابي أكثر؟ جونسون أم قولد ووتر؟ ، ولكن بالنسبة لي كرجل أسود فهما معاً على السواء جونسون (ثعلبٌ) و قولد ووتر (ذئبٌ).

فسياسة المحافظين ترمي إلى الاحتفاظ بالزنوج في أماكنهم وأوضاعهم الحالية، أما التحرريون فيرمون إلى دعم قضية السود، بمعاملتهم أحسن من ذي قبل، وتخيرهم في توفيق أوضاعهم ثم ما يلبثون أن يجزوهم بالمماطلة والخداع وعدم الوفاء بالعهود، فالأسود الأميريكي يحتاج إلى مراجعة نفسه فلأي من الرجلين يختار أن يكون وجبة شهية؟، للثعلب التحررى أم للذئب المحافظ.

ولكني أعرف أين تقف قدماي ، فسوف أجارى الذئب الخطير أكثر من الثعلب المحتال، فالذئب يجعلني شديد الانتباه والحذر ومنازلته من أجل البقاء، بينما الثعلب فسوف يدوم على المراوغة والخداع، وإيضاحاً لذلك: "عندما نُصِّب جون رئيساً إثر عملية الاغتيال في مدينة دلاس، استعان بصديقه الأبدي (ديكي رتشارد روسلي) من جورجيا، وأخذ جونسون يردد قائلاً: "إن الحقوق المدنية مسألة أخلاقية"، بينما صديقه عنصري الجنوب الأميركي الشهير قام بزعامة معارضة الحقوق المدنية، فياله من تناقض!، فهو أشبه بالشرطي العجيب الذي قُلد لقمع عمليات السطو على البنوك بينما (جيسى جيمس) صديقه المقرب. أما (قولد ووتر) أكبر في هذا الرجل

صدقه ، الشيء الذي يندر حدوثه في مثل هذه الأيام، فهو لا يعطى العنصريين وجهاً والتكامليين وجهاً آخر، وأعتقد أنه سوف لن يخاطر بموقفه غير المحبوب من دون قناعاته الشخصية، وقد حدث السود صراحة أنه ليس لهم ولا عليهم، فعلى السود أن يقرروا بأنفسهم متى تحدث الثورة وضد من تكون؟ ومن هو عدوَّهم من النُظم؟ . هذا فقد دفعت الترنيمات المنومة الزنوج الشماليين إلى أن يصيروا شحاذين، بيد أن الزنوج الجنوبيين واجهوا البيض صراحة دون موارية الذين نازلوهم طوالاً من أجل الحرية قبل أن تحدث في الشمال.

وخلاصة القول أن (جونسون) ليس بالأفضل من (قولدووتر) في كل الأحوال والعكس هو الصحيح.

في موعد الانتخابات لم أكن بالولايات المتحدة الأمريكية، ولو كنت موجوداً لما صوتُ لكل من الرجلين للرئاسة أو شجعت السود على فعل ذلك. فها هي ذي الأمور قد انجلت الآن وساق الزنوج (جونسون) إلى النصر المؤزر ودخل البيت الأبيض، فلو كان ذلك (قولد وتر) لكان في مقدور السود أن يتقبلوه ذئبا صادق في إلتهامهم عن رغبة ، وأرحم من الثعلب الذي سيلتهم نصف اجسادهم ليتركهم حيارى بين الموت و الحياة ، قبل ان يفطنوا لما حدث .

وقد احتفظت بكل هذه المتناقضات محاولاً النهوض نحو اتجاه جديد أسميه [المنظمة القومية للسود] ، والتي أود أن أبنيها للزنوج الأمريكيين، لماذا القومية السوداء؟، حسناً: "إن في المجتمع الأمريكي التنافسي لن يحدث التكافل بين البيض والسود قبل أن يحدث ذلك التكافل في المجتمع الأسود أولاً. لو تتذكرون في طفولتي قد تعرضت إلى التعاليم القومية السوداء (لماركس قارفي)، وقد قاد ذلك إلى اغتيال والدي. حتى عندما كنت تابعاً (أليجاه محمد) كنت مقتنعاً بإمكانية الفلسفات السياسية والاجتماعية والاقتصادية للقوميين السود في تلقين أبنائها الكرامة والثقة والحافز المعنوي للنهوض على أرجلهم، والعزم على المضي واتخاذ موقف ايجابي لأنفسهم. ومن أكبر التحديات التي تواجهني في بناء المنظمة، أن رؤيتها العامة تهدف في النهاية إلى خلق وحدة صادقة بين السود والبيض. أما رؤيتي القديمة (المسلم الأسود)، فقد ظلت تأسرني وكنت أحاول تدريجياً إعادة تشكيلها، فلم يقل غضبي ولكن ما وجدته في الأراضي المقدسة من معانٍ سامية للأخوة، أثر فيّ بالقدر الذي ألهمني أن الغضب دوماً ما يعمى بصيرة الإنسان.

في كل لحظة اغتنمتها كنت أتحدث إلى مفاتيح العامة الذين أعرفهم في هارليم، وألقيت عدة خطب منوهاً أن الإسلام بوتقة تنصهر فيها كل العناصر الدينية

والسياسية والاقتصادية والنفسية والعرقية، وتتجسد فيه اللبنات الأساسية لتكامل الأسرة والمجتمع.

وفي مكة المكرمة تعددت صداقاتي وشملت كل الأديان وحتى الوثنيين و الاقتصاديين من رأسمالية وشيوعيين، إضافة إلى الاجتماعيين، فكل هؤلاء إما محافظ أو معتدل أو متطرف، تعددت ألوان بشرتهم.

وقلت لجماهير هارليم: "إن المرء عندما يخضع للخالق وحده، تقترب نفسه نحو السلام الذي يكثر القول عنه ويقل العمل لتحقيقه".

وفي قضيتنا يجب أن ننظر لكفاحنا ضد المجتمع الأبيض كقضية إنسانية لا تقبل النفاق والمزايدات، فكل الجماعات والأفراد منا ملزمون بها. والمجتمع الأبيض الصالح هو من يقف بجرأة وهمة ضد التمييز العنصري عند شعب أبيض آخر. وعلى السود أن يرفعوا من مستوى وعيهم أنه بإنجاز الحقوق المتساوية تتطاوع النفوس لتحمل المسؤوليات المتساوية. وأعلم أكثر من أي أسود عن كثرة البيض الذين يتمنون أن تُحل القضية العنصرية في بلادنا وهم الآن مُحبطون مثلنا. واقسم أنني قد تلقيت خمسين رسالة من هؤلاء الرفقاء، وقد سألني بعضهم في إحدى اللقاءات " ما هو دورنا؟ كيف نعبر عن إخلاصنا لكم"؟، فذكرني ذلك بإحدى الفتيات التي حضرت على عاجل السرعة من جامعة (نيو انقلاند) إلى نيويورك ووجدتني في مطعم (أمة الإسلام) بهارليم، وآسف الآن على اعتذاري السابق لها وعدم ارشادها، وأتمنى أن أعرف اسمها الآن لأخبرها ما قلته للبيض بعد ذلك عندما جاءوا بأنفسهم عاقدين العزم وسألوني نفس سؤال الفتاة ، فأخبرتهم أولاً أن منظمة (القوميين السود) منظمة خاصة حسب تسميتها لا تستطيع أن تقبل عضويتهم، فالبيض العازمون للانضمام إلى منظمات السود يدفعهم إلى ذلك الهروب عبر أسهل المسالك لإنقاذ ضمائرهم وذلك بالتحليق حولنا لإثبات أنهم معنا، ولكن ذلك لن يؤدي إلى حل القضية لأن السود هم الضحايا، فعلى هؤلاء إثبات إخلاصهم لنا هنالك في الخطوط الأمامية للقتال في مجتمعاتهم البيضاء، حيث تكمن حقيقة التمييز العنصري بين أقربائهم وأصدقائهم وأحبائهم، هذا هو الواجب الذي أُمليه على كل أبيض يريد أن ينجز بعض الشيء لكشف سريرته وحسن نواياه. فأرجو أن لا يؤاخذني أصدقاؤنا من البيض إن قلت أن انضمامهم إلى منظمات السود سوف يجعلها ذات تأثير سلبي، وحتى ذوي التأثير النافذ من هؤلاء البيض فسوف يبطؤون فهم الزنوج ويشوشون معرفتهم بما يسعون إليه وماهية الوسائل والسبل إلى تحقيق ذلك، فينحرفون عن جادة الطريق نحو العمل من تلقاء أنفسهم وعبر مجتمعاتهم وبوساطة جنسهم. ولا أقصد التجريح، فأنا لا أثق في البيض

المتسكعين حول المجتمعات الزنجية، كما لا أثق في البيض الذين يعشقون تسكع الزنوج حولهم، ربما يكمن الدافع خلف هذه الأحاسيس، ما عادني من ذكريات الأمس عندما كنت صبياً يافعاً مقبلاً على الحياة، أشق طريقي في هارليم، وكان المخمورون من البيض ذوي الوجوه الحمراء والذين يترددون على الأندية الليلية عادة ما يمسكون بتلابيب بعض الزنوج قائلين "نريدكم أن تعلموا أنكم بخير طالما نحن كذلك"، ثم بعد ذلك يركبون سياراتهم الخاصة السوداء وسيارات الأجرة ويعودون أدراجهم إلى أماكن سكنهم أو عملهم، حيث لا يوجد من الزنوج إلا الخدم.

وأعلم أنه كلما انضم البيض لمنظمات السود يسير الأمر على ما يرام، ثم في النهاية يعتمد السود على البيض في دعم المنظمات، فيكون للسود العنوان فقط أما السيطرة الفعلية تصبح في يد البيض وذلك لما بحوزتهم من أموال.

ولكن يا معشر البيض الأوفياء يمكن أن نتحد سوياً كل في نطاق مجتمعه، فليلجأ إخوتنا البيض إلى بني جنسهم الذين يشاركونهم الأفكار والأحاسيس والمحاولة الجادة للتأثير في تغيير المواقف العنصرية لكثير منهم، فهم في حاجة ماسة إلى استيعاب الدرس وتبني ثقافة اللا عنف.

فنحن نحترم شركائنا البيض فهم يستحقون كل التقدير ونهديهم احترام انفسنا. وفي غضون ذلك سوف نعمل في إطار بني جنسنا السود بتبصيرهم إلى الوسائل المتاحة بأيديهم لمساعدة أنفسهم.

أن نعمل نحن السود والبيض في كيانين منفصلين حتماً سيفي لتحقيق التآزر المنشود، فعبر هذا الاحترام المتبادل سوف نمهد الطريق لخلاص المأزق الروحي للذات الأميريكية لو قدمت للسود حقوقهم وكرامتهم الإنسانية على أكمل وجه. ومثل هذه الأعمال والنوايا الحسنة لا تبدر إلا من قلب رقيق الحواشي، مفعم بالإنسانية والوفاء لالتزاماته الأدبية، فتُدرك الدوافع والمسببات الأساسية التي أدت إلى انفجار البركان العنصري في بلادنا اليوم، وبالعدم فسوف تتسع دائرة هذا البركان ويزداد الأمر سوءاً.

حقيقةً لن تحل المشكلة بإطلاق الألقاب المشينة مثل (أسود), (متطرف)، فإن التمييز العنصري وما يدور حول محوره من مدلولات ومعانٍ يقع وزر كل ذلك على عاتق أمريكا.

وأحلم باليوم الذي سيقول فيه التاريخ كلمته، بأن صوتي الذي قهر غرور البيض واستكبارهم واستكانتهم للظلم قد أنقذ أمريكا من الانحدار نحو النهاية المأساوية والانتهاء إلى العدم. إن الهدف واحد مهما اختلفنا أنا والدكتور (مارتن لوثر كينق)

صاحب ثورة اللا عنف والتي لا تقود إلا لتجبر الرجل الأبيض والاعتراف بظلمه باعتبار أن الأسود لا يدافع عن نفسه ؛ ففي هذا الجو العنصري وفي كلتا الحالتين القضية واحدة والعدو واحد وردود أفعاله واحدة، رغم اختلاف التكتيك سواءً أن كان عبر اللاعنف للدكتور مارتن لوثر، أو عبر ما يسمى (بالعنف) والذي أتبناه أنا.

وكل ما أفعله اليوم من محض إرادتي و مدفوعاً من إيقاع عمرها السريع، فإن المرء قد لا يعطى زمناً كافياً لقضاء حوائجه في الحياة، ولكن لحياتي هدف أستطيع أن أفرغ له جل أوقاتي، فهي لم تستقر يوماً ، ولقد رأيتم كم شهدت مسيرة حياتي تقلبات غير متوقعة، إنني أواجه الحقيقة رغم قناعتي بأنها الموت، وهذا صحيح فمنذ جولتي الأخيرة بالخارج رأيت كيف تجرى الأمور على حقيقتها، وكيف يُعلم المرء أن يأخذ الحقيقة من مصادرها.

لا أخاف الموت، لم أفكر يوماً أن أعيش حتى أغدو شيخاً طاعناً في السن ، حتى قبل اعتناق الإسلام ، وكذلك عندما كنت أزاحم مع الآخرين في الأحياء السكنية الفقيرة وبعد ذلك مجرماً في غياهب السجن، فكنت أدرك أنني سوف أموت يوماً شر ميتة، فقد جرت هذه العادة في عائلتي، حيث مات والدي وكثير من أفراد عائلتي بالعنف، فأبي مات بسبب معتقداته، فلو جاز لي أن آخذ نوعية الأشياء التي أؤمن بها وأضفتها إلى النوعية التي تتقلب بها أهوائي، وحفظتهما بظلال تكرسي وإخلاصي اللذين أؤمن بهما فإن هذه المكونات المجتمعة تجعلني من العسير أن أموت من الشيخوخة.
أعطيت لهذا الكتاب وقتاً كثيراً من حياتي، وسوف يكون ذلك بمثابة شهادة على بعض المواقف الاجتماعية. والقارئ الموضوعي يستطيع أن يفهم كيف جرت حياتي في المجتمع الأميركي وما تعرضتُ له كفتى أسود. وبالنسبة لي فإن دخول السجن كان أمراً محتوماً ولكنه حدث لألوف مثلي من الشباب السود. وسيدرك القارئ أيضاً عندما كنت ألعب في صغرى وسمعت مقولة "الرجل الأبيض شيطان"، كانت تلك تجربة شخصية قُدر لي أن أستجيب لها ايجابياً، فاستجابت الاثنتا عشرة سنة اللاحقات من عمري بالتكرس والتفاني تشهيراً لهذه المقولة وسط المجتمع الأسود.

وأتمنى أن يكون القارئ قد استوعب في تتبعه لمسيرة حياتي الصورة الحقيقية لهذه السكنات الشعبية الدنيا التي ولدت فيها، وأن يضيف فهماً حقيقياً إلى ما يعرفه أصلاً عن هذه المساكن السوداء والتي شكلت حياة ونمط تفكير أكثر من اثنين وعشرين مليون زنجي يعيشون في أمريكا. يا لها من سنين عجاف تلك التي عشتها في تلك الأحياء البائسة مع ضرب من الشباب الغض وضرب من الأبطال المزيفين وذوي التأثير السالب، ولحسن الحظ كثير منهم مثلي قد تجنب ذلك ولكن الندرة القليلة منهم

والتي لم يحالفها الحظ قد استمرأت الاتكالية والانحراف، وعندما تتراكم أرقامهم السنوية يصبحون بطبيعة الحال أكثر إجراماً وتأثيراً سالباً، مجرمين خطيرين في عز شبابهم.

قامت الـ (أف. بي. أي) مؤخراً بإصدار تقرير وافي للارتفاع المهول المتراكم لعدة سنوات منذ نهاية الحرب العالمية الثانية والخاص بمعدلات الجريمة بنسبة تتراوح بين 10 – 12% لكل سنة، وما لم يقله التقرير، أقوله بالحرف الواحد أن معظم الزيادة في معدلات هذه الجرائم تحدث في الأحياء الفقيرة للزنوج والتي نتجت من جراء سياسة النظام الأميركي العنصري. ففي عام 1964م خرج المشاغبون في ما يسمى بالصيف الحار الطويل في معظم مدن الولايات المتحدة وكان في طليعة هذا الشغب شباب الأحياء الفقيرة السوداء المحرمون اجتماعياً من حقوقهم الطبيعية.

وفي غضون هذا العام 1965م سيزداد عدد الثائرين أكثر من ذي قبل وفي كثير من المدن بالرغم من [فاتورة إنقاذ ضمير الحقوق المدنية]، والسبب هو سوء النوايا العنصرية في أمريكا والذي طال أمده. فليس في أمريكا من عاش في الوحل مثلي ، أومن عاني من الآلام مثلي ،أومن غرق في ظلمات الجهل مثلي، ولكن حتماً سوف يبزغ الفجر الوضيء من أعماق الظلام وسوف ترفع أسهم الحرية في مراهنات السجن والعبودية. ومن أجل أن ينال إخوتي وأخواتي السود حريتهم، أعترف أنني حاربت بأفضل ما أملك وبأفضل ما أقدر عليه ومع مساوئي التي لا تحصى ولا تعد.

لم أحظ من التعليم القدر الذي يؤهلني لأكون محامياً حتى إن مثلت هذا الدور خير تمثيل، ولو كان في مقدوري أن أدير عجلة الزمن إلى الوراء، لذهبت إلى إحدى مدارس نيويورك العامة وبدأت من حيث انتهيت في المستوى التاسع وواصلت التدرج ، وذلك لأنني لست مستعداً أكاديمياً لكثير من الاهتمامات التي أخوضها الآن، فعلى سبيل المثال أنا أحب تعلم اللغات وتمنيت أن أكون لغوياً بارعاً، ولا شيء أقسى على المرء من أن يكون مع أناس يتحدثون بما يجهل فهمه، خصيصاً لو كانوا أشخاصاً من بني قومه. ففي إفريقيا استمعت إلى اللغات الإفريقية الأصيلة مثل لغة الهوسا والسواحيلي ، كنت أسمعها ولا أقوى على فعل شيء ، وحينها أدركت كم كنت جاهلاً. بجانب ذلك حاولت تعلم اللغة الصينية لأنها سوف تصبح لغة العالم السياسية والأقوى في المستقبل. كما تعلمت العربية وأعتقد أنها اللغة الروحانية الأولى في المستقبل بإذن الله.

ودائما ما يدفعني عقلي المتفتح إلى مناهل العلم ، وهذا سر اهتمامي الشديد الآن بكل المواضيع.

بعض مستضيفي البرامج أحترم وجهة نظرهم بالرغم من أن كثيراً منهم ظل متمسكاً بموقفه في موضوع التمييز العنصري، ولكن أقدر فيهم العقل المتفتح والموضوعية التي ينظرون بها لحقائق بعض الأشياء التي تحدث في هذا العالم، مثل (إيرف كويسنت) في شيكاغو و (هايك والاس) في نيويورك، فقد كانا يحترمان عقلي وينبهانني لذلك، في كثير من الأحيان كانا يتشرفان بدعوتي لتناول موضوع يختص بالعنصرية، ولكن في بعض الأحاديث وبعد انتهاء النقاش كنا نجلس سوياً للتفاكر في مواضيع شتى، أحداث معاصرة وغيرها، وقد يمتد الحديث لساعات طوال.

وكما علمتني الحياة فإن معظم البيض حتى الذين يقرون بذكاء الزنوج يؤمنون بمحدُودية ذكائهم، فما زالوا يعتقدون أن ذكاء الزنجي لا يخرج من إطار القضية العنصرية ، فهو لا يستفيض بذكائه إلى مواضيع وأفكار أخرى, والدليل على صدق قولي أن الأبيض نادراً ما يسأل الزنجي عن وجهة نظره في مشكلة الصحة العالمية أو سباق الفضاء والهبوط على سطح القمر.

كلما استيقظت في صبيحة يوم علمت بأنه مخصوم من عمري. وأينما ذهبت كنت أقيم الاجتماعات وألقى الخطب عن منظمتي أو أحضر المناسبات المختلفة. وكان من السود من يراقب تحركاتي منتظراً الفرصة المواتية لقتلي، وقد اعلنت ذلك مرات عديدات، أعرف أنهم مأمورون، والذين لا يصدقوني القول لا يعرفون المسلمين في (أمة الإسلام).

ولكنني أيضاً وُفقت في اختيار أصدقاء صالحين أوفياء لي بقدر ما كنته من وفاء ذات يوم لأيجاه محمد، إن الذين يريدون اصطياد رجل مثلهم فليعلموا جيداً أن الغاب مليء بالذين يرغبون في اصطيادهم.

وأعلم أيضاً بدنو موتي الفجائي على يد أحد البيض العنصريين أو الزنوج المأجورين أو الذين غُسلت أمخاخهم أو الذين يساعدون الرجل الأبيض بقتلي ، فقط لأننى اختلفت معهم في الطريقة التي أواجه بها الأبيض وآمنت بصواب نهجي.

ولدنو المنون السافر لا أظن أن أعيش لأقرأ هذا الكتاب في شكله النهائي. فأريدكم لذلك أن تتأكدوا بأنفسكم أن صحافة الرجل الأبيض سوف تنعتني بـ(البغيض)، سوف تستغل موتى بقدر ما نجحت في استغلال حياتي (كأفضل مثال لإثارة الكراهية)، وذلك كله من أجل الهروب من الحقيقة، وكل ما قلته أو فعلته ليس إلا المرآة الحقيقية لتعرية تاريخ الجرائم التي لا توصف والتي اقترفها المجتمع الأبيض في حق الأسود.

سأُوصف بعد موتي في أفضل حال بـ(الرجل الأسود المستهتر)، لأن القائد (المسؤول) في نظرهم من لا يحقق أي نتيجة، وثِق أنك تحدث أثراً جميلاً كرجل أسود طالما أنك مجرد (مستهتر) فلا تستكن إلى الظاهر.

وقد تعلمت ذلك منذ أن كنت طفلاً صغيراً ومنذ أن أصبحت نوعاً ما قائداً للسود هنا في المجتمع العنصري الأمريكي، فكلما هاجمني أو صدني الرجل الأبيض بشراسة ما زادني ذلك إلا يقيناً على صحة نهجي في ارتياد الطريق القويم للوصول بالسود الأمريكيين إلى غايتهم الفضلى وهذا ما يستحقونه.

نعم أنا أعتز بموقفي الغوغائي، والشعوب في مسيرتها دائماً ما تغتال من يحاول أو يساعد في تغييرها. فإن قُدر لي الموت وأنا أخلق بصيصاً من أمل أو لإيجاد أي حقيقة قيمة تساعد في القضاء على سرطان التفرقة العنصرية المستشري في كيان المجتمع الأمريكي، فإن الحمد كله لله وأتحمل وزر أخطائي.

الخاتمـــة

بقلم الكس هالي

في عام ألف وتسعمائة وتسعة وخمسين عندما عرف الشعب الأميركي المسلمين من خلال البث التلفزيوني الشهير (الكراهية التي تولد الكراهية)، كنت في ذلك الوقت بسانفرانسيسكو على وشك التقاعد بعد عشرين سنة من الخدمة قضيتها في خفر السواحل الأميركي. وقد حدثتني صديقة عادت لتوها من مدينتها (ديترويت) وهي في حيرة من أمرها من الدين المخيف (أمة الإسلام) الذي أقلق مضاجع السود واعتنقه كل أفراد أسرتها.

فاستمعت إليها في شك وارتياب وهي تحكي عن كيفية نجاح العالم الغريب الأطوار المستر (جاكوب) في الاستخلاص الجيني لطُعم للعرق الأبيض من العرق الأصل والذي تمثله السلالة السوداء، فقد لُقب قائد هذه الجماعة بالمُبجل (أليجاه محمد)، والوزير مالكولم إكس وكان رئيساً ظاهرياً. وعندما شاءت الظروف أن أمتهن الكتابة المدنية، قمت في هارليم بجمع كمية لا بأس بها من المعلومات كانت ثمرتها الموضوع الديني الذي قدمته لمجلة (الريدردايجست).

قمت وقتها بزيارة لمطعم للمسلمين بهارليم وطلبت مقابلة السيد الوزير مالكولم إكس، فخرج إليَّ في التو رجل طويل مهلهل ذو بشرة سمراء ضاربة إلى الحُمرة، كان في ذلك الوقت يناهز الخامسة والثلاثين من عمره. وعندما كشفت له عن أسباب زيارتي، وقف شعر رأسه من الخوف ونظر إليّ من وراء نظارته قائلاً بحدة "أنت إذن عميل آخر أرسله البيض للتجسس"، فأخبرته بمهمتي الرسمية وناولته خطاب التكليف من المجلة والمقال المطلوب، ثم هدأته قائلاً أن على المرء الموازنة بين ما يقوله المسلمون عن أنفسهم وما يقوله الأعداء عنهم، فتمتم قائلاً "إن وعود البيض لا تستحق ثمن المداد الذي كُتبت به"، وقرر أن يستجيب إلى طلبي لاحقاً. وحتى ذلك الحين اقترح عليّ مداومة الحضور لبعض ما يسمونها باجتماعات هارليم المعبدية رقم (7)، وكانت "المعابد" قبل تغيير اسمها إلى "مساجد" مفتوحة لاستقبال الزنوج غير المسلمين.

التقيت بعدد من المعتنقين الجدد عند مطعم المسلمين ، وهم فتيان مهذبون يرتدون حللاً أنيقة، وكانت سيماهم وسلوكهم ينمان عن التقشف، وكانوا ينطقون بالعبارات المبتذلة التي أقرتها المنظمة، فحتى السماء الصافية على حد قولهم نعمة يجب أن نشكر الله عليها، والشكر موصول أولاً وأخيراً إلى المُبجل (اليجاه محمد).

وفي نهاية المطاف واستجابة لرغبتي اقترح مالكولم إحالة الموافقة إلى السيد أليجاه محمد شخصياً، لأنه لا يستطيع تحمل المسؤولية وحده. وبالفعل تم تحديد الموعد، وطِرت إلى شيكاغو، حيث دعاني الرجل إلى العشاء بمنزله وبحضرة أسرته. كان بجانب بنيته الضعيفة رجل حييّ رخيم الصوت، وأدركت أثناء حديثه معي أن الرجل في ريبة من أمرى، فقد دار حديثه حول وكالة الاستخبارات المركزية وهيئة الدخل القومي اللتين أخضعتا منظمته للرقابة، كما تحدث عن جلسة الكونغرس القادمة وما يشاع عنها، "ولكنني في سبيل البحث عن الحقيقة لا أخافهم جميعاً ".

ولم تحقق زيارتي أهدافها لكتابة المقال، بيد أن السيد مالكولم إكس أبدى روحاً حسنة للتعاون عندما عدت مرة أخرى، فقد جلسنا حول منضدة بمطعم المسلمين وأجاب على كل أسئلتي بروية وحذر، رغم المكالمات التلفونية التي كان يتلقاها بين الفينة والأخرى من صحيفة نيويورك، فسألت عن أنشطة المسلمين في المدن الأخرى، فقام لاحقاً مع "وزراء" آخرين بالتمهيد لحضورى لعدد من الاجتماعات في "معابد" بواشنطن وديترويت وفيلاديلفيا.

كان مقالي تحت عنوان (هكذا يحدثكم السيد محمد) قد ظهر في مطلع عام 1960 كأول استبيان صحفي تصدره مجلة عن هذه الظاهرة الدينية، وخاطبني السيد محمد مثمناً الموضوعية التي أخرجت بها المقال وفاءً بوعدى له، وعلى ذات النسق هنئني مالكولم إكس. في غضون ذلك خرج من دور النشر كتاب الدكتور (س. ايرك لينكولون) [المسلمون السود في أمريكا]، فأصبحوا بذلك قبلة للاهتمامات.

في سنة 1961م و1962م قامت صحيفة [الستر دى إفنيق بوست] بتكليفي أنا والزميل الصحفي الأبيض (أوول بالك) بكتابة مقال، وبعد ذلك قمت بإجراء حوار شخصي مع مالكولم إكس لصحيفة [البلى بوى] والتي وعدت بنشره حرفياً، خلال ذلك الحوار ولأيام عدة ظل يردد باستمرار معرباً عن مخاوفه "أنت تعلم أن أولئك الشياطين لن يسمحوا بطباعته"، وغير ذلك من الأقوال التي تندد بالبيض والمسيحيين، ولكنه تفاجأ كثيراً عندما نُشر المقال كاملاً بالجريدة حفاظاً لوعدها، ومنذ ذلك الحين بدأ مالكولم إكس يستهويه شخصي، فبدأت أثير اهتمامه بجانب اهتمامه بالمجلات الدورية الوطنية وما تملكه من قوة وتأثير، فلعل ذلك مدخل يفضي به إلى النجاح وإن كان يشوبه بعض الشك والغموض.

وبدأ بمهاتفتي من حين إلى آخر ليستشيرني في إجراء حوارات إعلامية في الراديو والتلفزيون أو المقابلات الشخصية التي ينوى القيام بها، أو ليشرفني بالحضور لإحدى الأسواق الخيرية الخاصة بالسود، أو غير ذلك من المناسبات الاجتماعية. بالأصح كانت مرحلة بناء لعلاقتي الشخصية به والذي لم ينفك في وصف نفسه عبر

الأثير بـ(غضبان أمريكا). وعندما جمعني وكيلي بالناشر في مطلع 1963م والذي أوحت إليه المقابلة التي أجريتها لجريدة (البلى بوى) بكتابة السيرة الذاتية لمالكولم إكس، سئلت وقتها عن ما سأفعله لإقناع هذه الجذوة القومية المشتعلة للإدلاء بالتفاصيل الكاملة لسيرة حياته. كما سألني المحرر عن إمكانية كتابة وصف موجز لأهم الأحداث لمثل هذه النوعية من الكتب. فأدركت كم أفتقر إلى الكثير في معرفتي بالرجل رغم كل الحوارات التي أجريتها معه، فقد كان شديد الحذر في الإفصاح عن تفاصيل حياته سواء كان ذلك لقائده أليجاه محمد أو أي بشر تحت إمرته كوزير. فكل ما أعرفه أنه في مسيرة حياته ارتكب جناية ذات يوم وأُودع السجن وذلك قبل أن يكون مسلماً، فقد قال لي عدة مرات "لن تصدق ما أحمله من ماضٍ"، كما ذكر لي آخرون بأنه كان قواداً و بائعاً متجولاً للمخدرات ، كما اشترك في كثير من عمليات السطو المسلح.

وأعرف أنه كان متعصباً لقيمة الوقت "من جملة من ألاقيهم، يقل احترامي لمن لا يرتدون الساعات"، ومع نفس الصنف الذي لا يقدر قيمة الزمن قال لي ذات مرة "في كل خطواتنا يبقى احترام المواعيد هو الفاصل بين الفشل والنجاح". إنني على يقين أن عضوية المسلمين السود تزداد أينما وقف مالكولم إكس محاضراً أو خطيباً، وأعلم بصلابة فخره واعتزازه بالمساجين من الزنوج، فلعمره ما السجن إلا مسرح للبحث عن الذات وإكتشاف الدين الإسلامي كما حدث له من قبل، وأعلم أنه صرح أن لا يأكل إلا من طعام المسلمين السود ويفضل في ذلك طبيخ زوجته (بيتى). وأعلم أنه يشرب أكواب لا تحصى من القهوة المقشدة في موائد الغداء الرسمية. كما حدثت المحرر ووكيلي أن مالكولم إكس لا يجامل في مبادئه حتى غير المسلمين، فأذكر في إحدى المرات التي كنت برفقته أن عرج بسيارته إلى إحدى الطرق، فبدأت حينها في إشعال سيجارتي، فصاغ لي احتجاجه قائلاً "أنت بهذا أول من يدخن في سيارتي".

ثم طرحت عليه فكرة السيرة الذاتية والنشر فعلق متردداً "دعني أفكر في الأمر" ثم أردف قائلاً "يومان بالتمام". فهاتفني لمقابلته في مطعم المسلمين السود قائلاً "أوافق لأن في قصة حياتي ما يدفع الناس إلى تقديس ما يبذله السيد محمد من غالٍ ونفيس في سبيل إنقاذ الشعب الأسود، ولكن أرجو أن لا يُساء فهمي من هذه الموافقة، فسوف يذهب ريع كل ما أجنيه من هذا الكتاب إلى نصرة [أمة الإسلام] وأولاً وأخيراً لا بد أن أذهب بنفسي لاستئذان السيد محمد.

وعلى ضوء هذه المحادثة التلفونية ذهبت لمقابلة السيد محمد في (الفيونكس أريزونا) حيث اشترت له (أمة الإسلام) منزلاً في طقس حار و جاف ذا طابع شعبي صارم .

فحدثني أن تنظيمه يضم عدداً كبيراً من المسلمين الأميين، فياحبذا لو سُنحت لمنظمته استيعاب الموهوبين وهم كثر في السلالة السوداء، "فنحن في أمس الحوجة إلى كُتاب". ثم ما لبس أن بدأ يسعل وازدادت النوبة سريعاً حتى هرعت إليه لنجدته، فأومأ إليَّ بالرجوع وقال لي لاهثاً "إن الله يبارك هذا الكتاب" وأن مالكولم إكس من أبرز وزرائه. وبعد ذلك أقلتنا سيارته إلى مطار فيونكس، فودعني هناك ثم خرج مسرعاً من صالة المطار وهو يسعل.

بعد قراءةِ حذرة قام مالكولم إكس بالتوقيع على عقد النشر، وسحب من محفظته ورقة صغيرة وبادرني قائلاً "هذا هو الإهداء : إلى الرجل الذي وجدني أمريكياً في حضن أوسخ مذبلة في شعوب وحضارات العالم قاطبة، فانتشلنى سريعاً وأزال عني فضلاتهم وعلمني كيف أقف على رجليَّ، وكيف أصبح رجلاً كما تروني الآن".

نص العقد على أن الأموال المنقولة لطرف السيد مالكولم إكس تدفع بواسطة وكيله لجامع السيد محمد رقم (2). وأكد السيد مالكولم إكس بأن هذا لا يفي بالغرض، فقام بإملائي صيغة خطاب بتوقيعه ينص على أن كل ما يمثل نصيبه من العوائد المالية حسب ما ذكر في العقد يدفع بواسطة وكيله الأدبي لمسجد السيد محمد رقم (2)، على أن تُرسل المدفوعات عبر البريد إلى العنوان التالي: (السيد رايموند شريف 4847 شارع وودلاند. شيكاغو -15- إلينويس).

في خطاب آخر صغته بتوقيعه كان بمثابة اتفاق بيننا على أن [لا يحوى الكتاب الصادر على ما لم يذكر في هذه المخطوطة، ولا يُحذف منه ما ذكر فيها] . وبالمقابل أخذت منه عهداً بأن يخصني بنصيب أكبر من زمنه لصياغة كتابه ذى المائة ألف كلمة والتي توثق السيرة الذاتية لحياته. وبعد شهور من العمل المضنى، وافق على تعليقي في نهاية الكتاب على سيرته الذاتية دون أن يخضع ذلك لمراجعته. وبعد ذلك دأب بانتظام على زيارتي لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات، موقفاً سيارته الزرقاء خارج استديو العمل بقرية "قرينويتش". كان دائم الوصول في الساعة التاسعة أو العاشرة ليلاً يبدو عليه التعب والإرهاق حاملاً حقيبته الجلدية الصغيرة ذات اللون البني الضارب إلى الصفرة والتي إلى جانب هيبة العالم المثقف أضفت عليه خيلاء المحامي الدؤوب.

بدأنا بداية متكلفة باستخدام المفردات التي يحبذها، وقد كنا نحن الاثنين مترددين لحد ما، كان كثيراً ما ينزوي بعيداً ويحدق إليَّ، ذلك هو مالكولم إكس ذو الطبع النرجسي الذي لا يتورع عن إذاقتك العذاب إن كنت زنجياً يغضبه بالقدر الذي يذيقه للبيض أجمعين. في التلفزيون، في الصحافة، في المؤتمرات والحشود الجماهيرية المسلمة، سمعته مهاجماً بمرارة الكتاب الزنوج واصفاً إياهم "أشباه العم توم"، جلست بعيداً أحدق إليه عازماً على إنفاق عام بأكمله لاستخراج ما في جعبته من خفايا وأسرار، وعندما اعتراه خوفٌ من التفوه بسنين حياته في عالم الجريمة وحياته عبر الهيكل البنائي الهرمي لتنظيم جماعة المسلمين، لم تسعفني عقيدتي المسيحية ولا العشرون سنة التي قضيتها في الخدمة العسكرية على إقناعه، بل كان يستهزأ بي كزنجي على هذه الانتماءات بالرغم من تشجيعه لي بالإهتمام بشئون المسلمين في الجرائد الوطنية، فقد حدثني مرات كثيرة وبأساليب مختلفة "أنتم معشر السود بمختلف إتجاهاتكم المهنية سوف تصحون يوماً من سباتكم لتدركوا أهمية الوحدة تحت قيادة المبجل أليجاه محمد وذلك من أجل الحرية والخلاص" .

وكان مقتنعاً أن (أف. بي. أي) قامت بإخفاء أجهزة التصنت في الاستديو وقد يكون ذلك بعلمي ومساعدتي على حد شكوكه، ففي أثناء الأسابيع الأولى كان يدخل الاستيديو مختبراً الغرفة فيردد صائحاً واحد – اثنان – ثلاثة، عسى أن يرتد إليه الصدأ بالمدهش والمثير.

ومن الأحداث التي أذكرها أن أحد البيض كان موجوداً بالاستيديو عندما حضر مالكولم إكس في وقت أبدر مما اعتاد عليه، فتصادفا معاً في الدهليز، فأخذ يشتكي لي في جلستنا تلك ، فقد أكدت تلك المصادفة صحة شكوكه. في مرة أخرى وأثناء تفاخره لي بمآثر تنظيم المسلمين، دلف لي فجأة بجواز سفره عندما كنت محاولاً قراءة رقمه وقال "يمكنك قراءة الرقم صراحة الآن، ولن يجدى ذلك، أولاً يعلم الشياطين البيض أنهم من زودني بهذا الجواز".

ولمدة قاربت الشهر كنت متخوفاً من تعاونه في كتابة سيرته الذاتية، فقد دام على مخاطبتي "السيد"، ومفكرتي لم تحوي غير فلسفة المسلم الأسود ومدح السيد محمد وشرور الشيطان الأبيض، وكان يعترض عندما ألح عليه أن الكتاب عن سيرة حياته هو، وكنت على وشك أن أخطر الناشر بصعوبة الاستمرار حتى لاحت بارقة الأمل الأولى، حيث لاحظت أن مالكولم أثناء حديثه كان يخط تلقائياً بواسطة قلمه الأحمر على كل ما يقع في متناول يده من هوامش الجرائد والبطاقات المفهرسة التي دأب على حملها في مؤخرة دفتر المواعيد خاصته.

فبدأت متعمداً ترك ورقتين ناصعتين من فوط المائدة عند تقديم القهوة، فنجحت الخطة، حيث بدأ يخط في الفوط، وهذه بعض النماذج الكتابية التي كنت استردها بعد مغادرته: (هنا يرقد ر. ص. قتله ر.س يقاتل من أجل ر.ب والذي قتل كل ر.ح لسهولة حل الشفرات يسهل التعرف على ما كتبه مالكولم إكس:

ر.ص تعني رجل أصفر
ر.س تعني رجل أسود
ر.ب تعني رجل أبيض
ر.ح تعني رجل أحمر

لكل شيء سبب، فإن موقف ر.س هو عدم مقدرة ر.ب على المواجهة لأنه مشغول بإخفاء خطاياه.

- لو كانت المسيحية حقاً قد ركزت دعائمها في ألمانيا، لكان ستة ملايين من اليهود على قيد الحياة.
- هتف الرجل الأبيض عاجلاً للأسود "أنظر لما فعلته لك!" عذراً "أنظر لما فعلتَه انت لنا! ".
- يتواصل الرجل الأسود مع الرجل الأبيض الذي أظلم النور في عينيه، وها هو الآن يدينه لأنه لا يبصر.
- أشخاص قليلون غيروا مسار التاريخ، هم الذين غيروا طريقة تفكير الإنسان في نفسه، هتلر والمسيح وأستالين وبوذا،المُبجل أليجاه محمد، .....

ومن تلك المخطوطات العديدة والسريعة التي نتجت عن الطُعم الذي وضعته والتهمه مالكولم أكس عندما غمزت السنارة، كان مدخلى عبر التي كتب فيها قائلاً "إن المرأة التي تبكى دائماً تدرك أن البكاء سبيلها للنجاح". فأدركت أن الفرصة قد سنحت لأفاتحه في أمر تلك المرأة، وتم ذلك فجأة أثناء احتساء القهوة ، وعبر مزيد من المخطوطات السريعة عبرعن شكوكه وانتقاده اللاذع للنساء قائلاً: "لا يستطيع المرء أن يثق تمام الثقة في النساء وحتى من أثق فيهنَّ لا يتجاوز الأمر 75% من مطلق الثقة، وقد حدثتهن بذلك كما أحدثك الآن، ولقد شهدت كثيراً من الرجال دُمرت حياتهم بسبب النساء عامة، وزوجاتهم على وجه خاص، فلا أثق فيهن ولا أثق حتى في نفسي، وكثير ممن أثق فيهم ليس دائماً من ذوى المكانة الرفيعة مثل المبجل أليجاه محمد" ، ثم نظر إلىَّ مباشرة وقال "أما أنت فثقتي فيك لا تتجاوز 25%" .

حتى لا أُثنيه عن المواصلة أعطيت موضوع المرأة جُل اهتمامي، فهتف بانتصار أتدري لماذا انحرفت "بنيدكت آرنولد" إلى امرأة خائنة؟، مهما كانت المرأة شيئاً آخر، لا يهمني ذلك، لأنها تبدأ من الغرور، وسوف أثبت ذلك من خلال عمل يمكن أن يقوم به الرجل في أي وقت، وقد قمت شخصياً بذلك، فاختر إحدى النساء ذات

الملامح الجادة والأكثرهن إدعاء بذلك واللآتي لا تعرف الابتسامة طريقاً إلى شفتيها، في كل يوم تلاقيها انظر إلى وجهها مباشرة وأخبرها بحسن منظرها، وانظر بعد ذلك للنتيجة، ففي اليوم الأول تقدم على سبك ولعنك، وفي اليوم الثاني أيضاً، وهكذا استمر وشاهد، ففي يوم من الأيام سوف تبدأ في الابتسام ملء شفتيها كل ما وقع ناظراها عليك.

عندما غادر في تلك الليلة استطعت أن أسترد من إحدى مخطوطاته المستعجلة والتي تُنبئ عن مقدرته على التحدث عن شيء بينما فكره مُنشغلٌ بآخر ، حيث كتب قائلاً "إن الزنوج أكثر إفراطاً في الاستقامة والصلاح".

* قال ر.ب "أريد قطعة الأرض هذه ولكن كيف لي أن أخرج منها هؤلاء الألفي نسمة من الرجال السمر".

* "لي زوجة جيدة الفهم، وإن صح التعبير جيدة الادعاء على الفهم"

* "إن نضال الرجل الأسود بتشكيلاته العديدة لن يكسبه الدعم الخارجي الذي يريده إن لم تتضافر جهوده في جبهة داخلية متحدة".

* "اجلس وحاور أرباب العقول المستحقين لتقديرك، فاشحذ تفكيرك، فكلنا يسعي لنفس الشيء".

* "يالها من صدمة قاسية لو بحت بأسماء قادة ر.س الذين التقيت بهم سراً، كانت الأحرف الكبيرة موجهة إلى المبجل أليجاه محمد".

وبعد ذلك وفي إحدى الليالي وصل مالكولم إكس مجهداً، ولمدة ساعتين ظل يزرع الغرفة جيئة وذهاباً منددا بقادة السود الذين هاجموه وأليجاه محمد، ولم أدرى ما الذي أوحي إلىَّ بالقول عندما سكت ليلتقط أنفاسه "هل يمكن أن تخبرني شيئاً عن أمك؟"، فتوقف فجأة وحدجني بنظرة أدركت عندها أن السؤال قد أصابه في مقتل، وكلما قفزت بذاكرتي إلى الوراء، أستدرك دائماً أن كل إجاباته الدفاعية لهذا السؤال كانت متأثرة بموقفه الضعيف، كان يتحدث ببطء ومضى الحديث في حلقة ضيقة عندما قال "كانت دائماً ما تقف فوق الموقد لطهو ما نسد به الرمق، وكم بقينا جياعاً حتى يصيبنا الدوار، ما زلت أذكر لون الفساتين التي كانت ترتديها، كانت لحد ما رمادية داكنة". واستمر في الحديث حتى آذان الفجر، وكان من فرط إجهاده دائماً ما تتعثر قدماه الكبيرتان وهو يزرع الأرض جيئة وذهاباً.

ومن هذه الاستفاضة الدافقة من فصول الذكريات، استطعت أن أخرج من جعبته المعلومات الأساسية للفصول الأولى لهذا الكتاب: "الكابوس"، "والتعويذة" وغير

ذلك. منذ تلك الليلة لم يتورع عن ذكر حتى التفاصيل الدقيقة في سيرة حياته، وخلال السنتين اللاحقتين أصاب الحديث حول أمه وتراً حساساً، فتغير مزاجه من الوحشة إلى الحبور وهو يسترجع ذكريات الطفولة، وقد ظل يؤكد أن ما تعلمه في تلك الأيام كان بمثابة اللبنات الأساسية والتي تشكلت على ضوئها مسيرة حياته التالية، حقاً "لا يُدهن بالشحم إلا المفصل ذو الصرير".

وعندما تطرق الحديث إلى انتقاله لمدينة بوسطن للعيش مع أخته غير الشقيقة (إلاّ)، بدأ يضحك من أيام التفلت و الجموح وهو يجوب شوارع ذلك الحي الفقير. فهتف قائلاً "لماذا أصارحك بأمور لم تخطر ببالي منذ ذلك الحين"، لكنه ما لبث وانجذب تماماً وهو يقلب ذكريات أيامه الأولى في هارليم

في إحدى الليالي وعندما كنت معه، قفز فجأة من مقعده وبطريقة لا تصدق بدأ ذلك الزنجي الغوغائي المخيف في الغناء مفرقعاً أصابعه، ممسكاً غليونه بإحدى يديه، واسترسل في الغناء رجلاً مفعماً بالسرور، تتطاير أذياله وترتفع ساقاه وقدماه الكبيرتان من شدة الطرب كما كان يحدث في أيام هارليم، وفجأة وكعادته تمالك نفسه وجلس في مقعده، ولبقية جلستنا تلك كان غاضباً ثم بدأ قاتماً من جديد عندما كان يتحدث عن هارليم بعد ذلك، "الشيء الوحيد الذي أقر بخطئه، الجرم الذى اعُتلقت وأنا ارتكبه ، كنت أملك عقلية الغاب لأنني أعيش فيها، ودفعتني لرذائلي تلك غريزة البقاء"، ولكنه لم يقر بالندم على كل ما اقترفته يداه من آثام، لأن كل ذلك من إفرازات الممارسات التي ارتُكبت في حق الألوف من السود بواسطة المجتمع الأبيض الذي نشأ في حضن المسيحية.

واستمرت فرحته عندما بلغ بسرده أيامه في السجن "دعنى أخبرك كيف وجدت هؤلاء المحكومين من الشياطين البيض وحراسهم لأفعل كل ما أريد، كنت أهمس إليهم، إن لم تستجيبوا إلىَّ، سوف أعلن أنكم زنوج فاقعو اللون ينتحلون شخصية البيض. وذلك يثبت حقيقة الرجل الأبيض، فهو يفضل الموت من الاعتقاد بأنه زنجي".

كما حدثني عن مداومته للقراءة في السجن "لا تسألني عن السبب ولكن من باب الفطرة أفضل الكتب الفكرية، فليست هنالك فرصة للوساطة أو التفكير العميق في الإيقاع السريع لحياتنا المعاصرة، فالسجين يتاح له الزمن الذي يستطيع استثماره فيما يفيد، وأنا أضع السجن في المرتبة الثانية بعد الكلية الجامعية كأفضل مكان يمكن للمرء أن يرتاده إذا أراد أن يفكر جيداً أو كان مدفوعاً لذلك، ففي السجن تسنح للمرء الفرصة لتغيير حياته كاملة، عندما يذهب المرء إلى السجن لن ينظر إلى نفسه والآخرين بنفس المنظار القديم. يتجنب الأوغاد وهم عائدون إلى موكب العيش

النزيه التفكير في آثامهم السابقة رغم أنها تحفظ وجوههم طافية عند لحظة الغرق. كما كتب في تلك الليلة [الرجل الأبيض يصنع القنابل ويلقيها على غيره من الأجناس، وها هوذا ينادى "الأحمر" خائفاً من أبيض مثله، لأنه قد يُنسفنا]. كما كتب مقطعاً من قصيدة فارسية[خذ الحكمة من بؤبؤ العين الذي نرى الأشياء به وهو ضرير] .

في الاستراحات البينية كان يلح على أن لا يشمل كتابه ما يوحى باعتزازه بشخصه الضعيف، وكنت أطمئنه بمراجعة المسودات بنفسه، أحيان أخرى كان ينهى هجومه على البيض بخوفه من عدم الطباعة والنشر وكنت أشير إلى العقد الملزم والدفع المقدم الذي أكرموه به، فيرد قائلاً "أنت عكسي تماماً، تثق فيهم فقد علموك في مدارسهم عن حقيقتهم، أما أنا فتعلمتها في الشارع والسجن وأؤمن بهذه الحقيقة المُرة".

بعض التجارب التي خاضها مالكولم إكس كانت تحسن مزاجه للحوار، وكانت ألطف الحكايات التي يسردها في الأيام التي يقع فيها حدث مؤثر في نفسه، فعلى سبيل المثال نما إلى علمه يوماً أن زوجين ليسا من المسلمين السود قد أطلقا على وليدهما إسم (مالكولم)، فسألني قائلاً " ماذا تستنتج من ذلك؟"، حدث ذلك في إحدى الليالي عندما كان مسترجعاً لذكريات صباه . وفي تلك الليلة أيضاً استطرد قائلاً "لن أنسى اليوم الذي رشحوني فيه رئيساً للفصل ، حيث قامت إحدى الفتيات واسمها (أودرى) ، يعمل أبوها ميكانيكيا بترشيحي وتذكية من ولد يسمى (جيمس كوتون)، فطلب منى الأستاذ مغادرة الفصل حتى يتسنى لبقية الفصل التصويت، وعندما عدت وجدت نفسي رئيساً ووقتها لم أصدق ذلك" .

كلما قرأ مالكولم كتاباً شيقاً ، يزيد تعلقه بالكتب "إن المرء لا يصدق تغير حياته بفضل ما يجنيه من قراءة كتاب واحد"، وردد لي مراراً وتكراراً ما قرأه من كتب في فترة تواجده بالسجن، "هل قرأت (تشابه اللغات)"، ولما أجبته بالنفي قال "إن فقه اللغة علم قاس ومتين، فهو يختص بكيفية معرفة تتبع الكلمات أياً كان وجودها، فخذ مثلاً كلمة (سيذر) فهي كلمة لاتينية تنطق (كيسر) وذلك بتفخيم حرف (الكاف)، ولكن عندما تم اقتباس نفس الكلمة للغتنا الإنجليزية قمنا بتخفيف الحرف الأول وهو حرف (الكاف)، ويقول الروس (سيذار) وتعنى نفس الشيء، وفي إحدى اللهجات الروسية (تيسار)، ويعتبر (جاقوب قريم) من أعظم علماء فقه اللغة، وقرأت نظريته في السجن وكلها تختص بتناغم الأصوات وترتيبها، إن علم فقه اللغة مرتبط بعلم أصول الكلمات وقد استهويتهما.

وما أن فرغت من تدوين هذه الصفحة حتى اتصل بي مالكولم إكس ليخبرني عن غيابه خارج المدينة لبضعة أيام، وخمنت السبب، كعادته كان مرتبطاً ببعض اللقاءات التفاكرية وشئون المسلمين، وقد كنت سعيداً لهذه الاستراحة الوقتية والتي ستمهلني لتنظيم المعلومات التي جمعتها في مفكرتي كل على حدة وفقاً للفصل الرئيسي الذي يناسبه أو تحت العنوان الرئيسي للفصل الذي يناسبه، ولكن عندما كان يعود في هذه الأوقات، كان يفاجئني بإضافات جديدة "منذ أن تحدثنا عن أمي اعترف بأنني لم أعطها حقها من القول، فقد كان من الصعب ذكر حقيقة بقائها في مستشفى المجاذيب لمدة تزيد على العشرين عاماً، لا أريد أن أتحمل وزر ذلك وحدى، كانت فكرة أختي (إفون)، واستطاعت أن تجمع حولها كلاً من إخوتي ويلفرد، ويلسى وفيلبرد، وقد قام فيلبرد بإنجاز المهمة وانتهى الأمر، ولكن لم أشعر أن المشكلة برمتها قد حُلت، فتجاهلتها تماماً مطوقاً ذكراها بحاجز دفاعي مغروز في اللاوعي يلهيني عن وخز الضمير، نعم يقع وزر كل ذلك على عاتق الرجل الأبيض، حتى الحاجز الدفاعي فهو من قام ببنائه في اللاوعيّ ليقيني شر كل ما أصعب أن أواجهه في دخيلة نفسي، ولكنني الآن أفتح عقلي من جديد وأعود موقظاً الذكريات من سباتها، وهذه إحدى المساوئ التي أمقتها في نفسي، الهروب من المشاكل والعجز عن حلها وإقناع النفس بعدم وجودها". وبعد ذلك بقليل تغيب لعدة أيام، وعندما عاد أخبرني أنه كان بمنزل شقيقه (فيلبرت)، "تناولت وجبة العشاء لأول مرة في غضون هذه السنوات مع أُمنا، كانت في السادسة والستين من عمرها، أكثر مني صبىً وصحة وذاكرتها أقوى من ذاكرتي، وكان فمها ممتلئاً بالأسنان عكسنا جميعاً نحن من رغب في إرسالها إلى مصحة الأمراض العقلية.

وكان مالكولم عندما يغضبه شيء في النهار، يأتي بوجه محمر من فورة الغضب، فعندما أصيب بعض المسلمين من قبل بوليس (لوس أنجلوس) وقتل أحدهم، ذهب إلى هناك وعاد صامتاً لمدة أسبوع، وعندما تحطمت طائرة في (أورلى فيلد) في باريس مات على متنها ثلاثون أميركياً من البيض معظمهم من جورجيا وأطلنطا، "لقد سمعت خبراً ساراً"، فلامه على هذا التصريح نفر من الجنسين (بيض وسود)، ومنذ ذلك الحين لم يردد مثل هذا القول أمام العامة، فشكا لي لاحقاً "هذه بعض التفاهات التي أتمنى إن لم أقلها".

كان مالكوم يستشيط غضباً كلما ذكر اسم القاضي الفيدرالي الموقر(ثيرفود مارشال) لما قاله الرجل قبل سنوات عندما كان رئيساً للنيابة "إن المسلمين يسيرون أمورهم تحت إمرة عُصبة من المجرمين الأشرار، ينظمون أنفسهم في السجون ويتم تمويلهم من قبل جماعات عربية". والمرة الوحيدة التي سمعت مالكولم يذكر فيها ما يمكن تفسيره بعبارة لاعنة، كانت عبارة [الجحيم] ذكرها مالكولم كرد فعل على

تصريح الدكتور (مارتن لوثر كينق): أن أقواله جلبت الشقاء للزنوج، فليذهب إلى الجحيم.

فقال لي غاضباً "إلى الجحيم، كيف لأقوالي أن تجلب الشقاء هنالك، دائماً ما يُحمَّل الزنجي المسؤولية ويُعفى الأبيض". وكانت العبارات مثل (متطرف) ، و(ديماجوجي) كثيراً ما تثير حفيظته "نعم أنا متطرف لأن المجتمع الأبيض هنا في الشمال الأميركي متطرف في الشر، حدثني عن أسود ليس متطرفاً وفي المقابل سوف أحدثك عن من يحتاج فعلاً لرعاية الطب النفسي".

مرة فاجأني قائلاً "كثير من الفلاسفة جنوا على البشرية، فإن أرسطو قد شلهم بأفكاره،وداروين من أذلهم، أما ألدوكس هكسلي فهو فاضحهم. ثم يتراجع قائلاً "أرجو أن لا تكتب ذلك حتى لا يُظن أنني أحاول التشبه بهم". وأحياناً أخرى عندما يثيره شيء يقول "هؤلاء بني العم توم يدفعونني دائماً للتساؤل؛ كيف نقد المسيح في بلاده!"، ثم ينهض وبهدوء يمزق الصفحة المخطوطة بمفكرتي إلى أجزاء صغيرة قبل أن يودعها في جيبه، ثم لا يلبس أن يهدأ حتى نهاية تلك الجلسة. وأذكر مرة أطلعني فيها على مقتطف من أحد الجرائد عن طفل زنجي عضه الفار "اقرأ ثم فكر وأفرض أنه طفلك، فأين سيد الحي؟ فهو في شاطئ ما في (ميامي)"، فأدار دفة الحديث غاضباً أثناء الحوار.

ولم أذهب معه حيث خاطب جمهوراً من الزنوج في هارليم، فقام (هيلين دودار) في جريدة (نيويورك بوست) بالتقرير عن الحادث:[تحدث مالكولم محدقاً في أحد الحاضرين من المراسلين الصحفيين البيض وكانوا هم البيض الوحيدون الذين حضروا الاجتماع فقال "هناك صحفي لم يدون كلمة واحدة في مفكرته زهاء الساعة والنصف، ولكن ما إن بدأت متحدثاً عن اليهود حتى أصبح مشغولاً بالتدوين الآن حتى يثبت أنني من أعداء السامية " ، فارتفع صوت من خلف ذلك الصحفي "اقتلوا الوغد، بل اقتلوهم جميعاً"، وكان الرجل على اضطرابه يبتسم بعصبية، فرد مالكولم بسخرية "أنظروا إليه وهو يضحك، فهو حقيقة لا يضحك" وعبر الأجواء المتوترة استمر قائلاً "إن البيض لا يعرفون الضحك هم فقط يستعرضون أسنانهم، ولكننا نعرف كيف نضحك، فإن ضحكتنا تنبع من الداخل إلى السطح"، فردد الجمهور خلفه "تنبع من الداخل إلى السطح". وبقدر ما استطاع مالكولم أن يقود الموقف ويستغله بخفةً ومهارة استطاع أن ينحرف به، لكنه كان فعلاً استعراضٌ ردئ].

ونما إلى سمعي وقرأت بعد ذلك أن مالكولم إكس هاتف ذلك الصحفي معتذراً له، ويعد هذا دليلاً جعل كثيراً من المراقبين اللصيقين بظاهرة مالكولم إكس التصريح الجاد بأنه الزنجي الأميركي الوحيد الذي يقرر متى يبدأ سباقاً للشغب ومتى يوقف

ذلك السباق. عندما استشهدت بهذا القول مستدرجاً تعليقه، رد قائلاً "لا أعرف هل بمقدوري أن أبدأ بالشغب، كما لا أعرف هل أنوى إيقاف شغب آخر!؟"، كانت تلك نوعية التصريحات التي يتوق إلى قولها.

وبعد عدة شهور استطعت بالتدريج أن أؤسس شيئاً من العلاقة الهاتفية مع زوجته ، والتي كنت أناديها بالأخت (بيتي) كما كان يفعل المسلمون، وكنت أقدر فيها روح الاهتمام المتزايد لتسيير أعباء المنزل ورعاية ثلاث بنات صغار بجانب الرد على كل المكالمات الواردة لمالكولم رغم أنها قد تفوق ما يستقبله عامل القسم الرئيسي في أي مؤسسة، فأحياناً عندما يكون معي يتصل بالمنزل ويقضي زهاء الخمس دقائق مسجلاً فيها الرسائل المتعددة التي تركت له بالمنزل.

وقد كانت الأخت (بيتي) ودودة معي عبر التلفون ، ولكن أحياناً ترد علي في سخط عفوي "لكنه لم ينل قسطاً من الراحة"، وكان مالكولم يعمل ما لا يقل عن ثمان عشرة ساعة في اليوم ، وعندما يغادر الاستديو في الساعة الرابعة مساءً، عادة ما يقضي أربعين دقيقة في طريق العودة إلى منزله الكائن شرق (المهيرست. لونق آيلاند) حيث طلب مني الاتصال به هنالك في الساعة التاسعة مساءً ، وذلك يحدث عادة عندما يرغب في أن أصطحبه إلى مكان معين، كان يخبرني بعد مراجعة مواعيده أين ومتى يرغب في ملاقاتي، خصيصاً عندما يُتاح لي زمن قبل الخلود في نوم عميق.

ولقد اصطحبته إلى كثير من الأماكن والمناسبات الجماهيرية مثل المحاضرات ومحطات الراديو والتلفزيون، ولا يطلب مني ذلك عندما يرافقه أصحابه من المسلمين مثل (جيمس إكس 67) ويُعنى بها جيمس الرجل السابع والستون الذي انضم لمسجد هارليم رقم (7)، أو صديقه (جارليس إكس 37).

وكان سائقوا الدراجات النارية في الطرق البرية يلوحون بأيديهم ونحن في السيارة، وكانت وجوه البيض والسود معاً تتوهج تلقائياً بوميض من الدهشة والعجب لرؤية وجه من المشاهير، وفي سفره الدائم كانت مضيفات الطيران يعرفنه ويبتسمن له بسخاء وكان بالمقابل يبادلهن الابتسامة بخلاصة الذوق والكياسة التي تنم عن صاحب السيادة والنبل، وبتلقائية تنساب الكلمات ثم تليها الحركة غير العادية لأفواج المتقدمين إلى حمام الطائرة وهي تزداد عابرة بجوار مقعده.

أينما نصل في وجهتنا صار من المألوف أن نسمع "هاهو مالكولم إكس" "أين هو؟" "إنه ذلك الرجل الطويل القامة". وكان العابرون يحدقون إليه وأكثرهم من الزنوج يتحدثون إليه أو يلوحون له بالتحية. وكانت نسبة عالية من البيض لا يعجبهم ظهوره

خصيصاً في الأماكن الضيقة مثل المصاعد الكهربية "أنا الزنجي الوحيد الذي يقارعهم بالحقيقة". وقال لي مرة "إنه ذنبهم ما يزعجهم ولست أنا ، إن المجتمع الأبيض يخاف من الحقيقة لأنها تكتم أنفاسه وتبدد قواه، فانظر كيف تحمر أوجههم متى ما حدثتهم بنذر من الحقيقة".

يا له من رجل عجيب، فهو ذو سطوة وجاذبية تسحر الألباب خصيصاً إذا كان داخل قاعة مليئة وكان بها آخرون من مقامه، ويحدث ذلك أيضاً خارج القاعة، أذكر مرة أنه جلس في مقاعد المتحدثين بين رجلي الكونغرس (آدام كليتون)، والرئيس الأسبق لمنطقة منهاتن الإدارية (هولان جاك) وكان الجمع الغفير مركزاً بطريقة رئيسية على مالكولم إكس.

وأذكر مرة أخرى عندما كنا مسافرين عبر السكة حديد من نيويورك إلى فلاديلفيا، حيث ظهر في محطة الراديو ببرنامج السيد/ أييدهار (دبليو. سي. أيه. يو) بقاعة مؤتمر فلاديلفيا، فسأله قائلاً "أأنت الرجل الذي قال أن كل الزنوج غاضبون وأنا أغضبهم، هل هذا صحيح؟" فرد عليه "نعم هذا الاستشهاد صحيح"، فبُهتت وجوه السابلة المتجمهرين آنذاك.

ركبنا إلى فلاديلفيا في مقاعد محجوزة، فهتف "لا أحب حافلات القطار فهي تزعجني" ، حتى مررنا بعربة العشاء علق قائلاً " لقد تعودت على مثل هذا النوع".

وفي غضون ذلك أخبرني أن الـ (أف. بي. أي) حاولت أن ترشيه لافشاء معلومات عن (أليجاه محمد) ، كما طلب مني أن أقرأ كتاباً جديداً للمؤلف (جارلس سيلبرمان) (الأزمة بين السود والبيض) ، "فهو من الكُتّاب البيض القلائل الذين أوتوا الشجاعة لقول الحقيقة" ، كما طلب مني أن أبلغ تحية شكر إلى الكاتبة (هيلين دودار) نيابة عنه بـ(نيويورك بوست) فقد فكر كثيراً في سلسلتها الصادرة حديثاً، وطلب مني ذلك لأنه لا يود أن يشكرها مباشرة من تلقاء نفسه.

وعند ختام برنامج (ابيدهارفي) الإذاعي، أخذنا قطار العودة إلى نيويورك وكانت حافلة القطار مليئة برجال الأعمال يقرؤون الجرائد وهم عائدون إلى منازلهم بعد مجهود يوم جهيد، كان الجو مشحوناً بوجود مالكولم إكس.

عندما كان الحمال الزنجي يعبر جيئة وذهاباً في الممر، همس مالكولم في أذني "تعودنا أن نعمل سوياً في هذا القطار، رغم أنني قد نسيت اسمه، إنه يعرفني ولكنه يعجز عن التعبير"، فمر بنا الحمال وكان مبهوت الوجه، وفي المرة الثانية برز له مالكولم من مقعده فجأة وبفمه ابتسامة "أحسب أنني قد التقيت بك من قبل"، فرد عليه

الحمال بصوت جهير "لقد سبق وأن غسلت الأطباق في هذا القطار، لقد أخبرت زملائي بأنك كنت في قطاري ونحن جميعاً نتبعك".

وكأنما التوتر الذي حاق بالمكان قد قطع بحد السكين، وبعد ذلك ببرهة عاد الحمال وقال "أحد ضيوفنا يريد مقابلتك"، فبرز رجل أبيض جيد الحلاقة، فتصافح الرجلان بحرارة، فشخصت أنظار القارئين من وراء الجرائد على طول امتداد العربة. فأفصح الشاب أنه كان في الشرق لمدة وهو الآن يدرس (بكولومبيا) "رغم أنني لا أتفق في كل ما تقول ولكنني أعجب بكيفية الطرح"، وكان رد مالكولم أكثر وداً "إن بحثت في طول أمريكا وعرضها لن تجد اثنين يتفقان في شيء واحد على الاطلاق"، كما قال لرجل أعمال أبيض متقدم في العمر جاء ليصافحه "سيدي أقدر مشاعرك، فمن الصعب أن تتحدث ضدي عندما تتفق مع كثير من أقوالي". وسرنا إلى نيويورك تحملق فينا الأنظار السافرة.

في (واشطن. دي. سي)، ندد مالكولم بتقاعس الحكومة في اتخاذ خطوة إيجابية لصالح الزنوج، وعلمت أن البيت الأبيض نفسه لاحظ ذلك، ففي فترة ليست بالطويلة وبعد أن تركت مالكولم لبضعة أيام، ذهبت إلى البيت الأبيض لإجراء حوار مترف مع السكرتير الصحفي للبيت الأبيض (بيري سالنجر) والذي قطب حاجبيه لمجرد أنني أكتب قصة حياة مالكولم إكس.

مرة ثانية تركته حيث ذهبت لمحاورة قائد الحزب النازي الأميركي (جورج لينكولن روك ويك) والذي صرح بإعجابه بشجاعة مالكولم إكس، واقترح أن يتحدا سويا لاتخاذ خطوات واقعية لحل القضية العنصرية وذلك بترجيح خيار الانفصال الطوعي بين البيض من ناحية والسود والزنوج الأمريكيين والعائدين إلى أفريقيا من ناحية أخرى، فقمت بنقل هذه الآراء إليه فرد قائلاً "أيظنني مجنوناً؟ ولكن ما زال هناك متسع من الوقت وسوف أتحدث مع ذلك الشيطان في وقت آخر".

ثم انطلقت إلى (أتلانتا) لمحاورة المشاغب المترف دكتور (مارتن لوثر كينق)، وقد كان مفتوناً بما سمع مني عن مالكولم إكس وفكرة النشر، قال متحفظاً أنه في بعض الأحيان يرغب في إيجاد فرصة للتحدث معه، وعند سماع ذلك قال مالكولم بجفاف "هل تتوقع أن أرسل له برقية برقم تلفوني؟"، ولكن في مرات عديدة استنتجت منه تردده فى الاعجاب بالدكتور مارتن.

وصلنا لوجهتنا وقد ازدادت أواصر الصداقة بيننا ولو دون الافصاح عنها، كان ودوداً وأكثر جاذبية ممن التقيت بهم، ومن ناحيته فهمت بأنني من النوع الذي يمكن أن يفضى بدواخله إليه بأمان وإخلاص، وكأي شخص استمرأ حياة الريبة والتوتر،

فهو يستمتع بصحبة شخص آخر يأمن إليه نفسياً وأنا ذلك الشخص. عندما أكون مسافراً كان يسألني لأهاتفه كما كان يلاقيني في المطار، فيتقدم نحوى بخطواته الواسعة وابتسامته الصافية، وكلما قادني إلى نيويورك يطلعني بآخر الأحداث منذ فراقنا. وأتذكر موقفاً في المطار أكد لي أنه لم يتراجع عن آرائه العنصرية، فأثناء ما كنت منتظراً أمتعتي، شهدنا مشهد لقاء عائلي مؤثر والذي من جملة تفاصيله، أطفال يقفزون ويمرحون بخفة ملائكية، فعلق قائلاً "في ليلة الغد سوف يلقنون كيف ينطقون كلمتهم الأولى (زنجي)".

عندما يغيب مالكولم في رحلاته الطويلة إلى (سانفرانسيسكو) أو (لوس أنجلوس)، لا أذهب بعيداً، فعادة ما يتصل بي في أواخر الليل ويسألني عن الكتاب وأحياناً يحدد مواعيد الحوار المقبل، ولكن إحدى المحادثات التي لن أنساها كانت في الساعة الرابعة صباحاً، استيقظت وكان وقتها في (لوس أنجلوس) ففاجئني صوته "أليكس هيلي ، إنني أثق بك 75%" ، ثم قفل الخط ، فاستلقيت على الفراش مفكراً ثم ذهبت إلى النوم يغمرني إحساس دفئ. منذ تلك الحادثة وحتى هذه اللحظات ما زلت مفعماً بالرضا ولكن لم يذكر كلانا ذلك الموقف للآخر.

إن احترام مالكولم إكس المتزايد للبيض محفوظ لأولئك الذين ينصرفون عن التفكير في وجود أي اعتبارات شخصية من طرفه تدفعه في صدامه معهم، أولئك الذين يناكفونه كرجل لا غير، وكان شديد الثقة بمقدرته عن كشف هوية أي شخص عن طريق ملكة الاستماع حيث قال "إن الاستماع الجيد فن خاص، استمع عن قرب لصوت المتحدث ويمكنني أن أميز إخلاصه ووفاءه". رجل الصحافة الوحيد الذي أعجب بشخصه السيد (هاندلر) من صحيفة النيويورك تاميز، فلقد سمعت بموافقته لكتابة مقدمة هذا الكتاب، كنت أعتقد أن مالكولم سيروقه ذلك في البداية، وعندما زار هذا الصحفي مالكولم مؤخراً، وصفه لي بالشيطان ثم قاطع نفسه في إحراج واضح "إنه مراسل يدعى هاندلر من جريدة التايمز"، إن احترام مالكولم لهذا الرجل ازداد بإطراد، و(هاندلر) من جانبه كان معجباً بحقيقة شخصيته، "إنه حقيقة أكثر البيض غير المتحيزين الذين صادفتهم"، كما قال مادحاً في الشهور التالية" امتحنته وسألته عن عدة أشياء، استمعت إليه عن قرب وهو يتحدث إلىَّ".

كما شهدته في مرات كثيرة مبتهجاً في نقاشات الأخذ والرد بعد نهاية كل محاضرة مع الغالبية التي يشكلها الطلاب البيض وكياناتهم المختلفة، مما يكذب عِلة حقده الدفين للبيض "إن الشبيبة البيض والسود معاً، هم أمل الغد الذي ستفخر به أمريكا، وأما سائرنا فما الحياة لنا الا أكذوبة نعيشها".

كثير ممن قفز إلى ذاكرتي من الزنوج يستهويهم مالكولم، وآخرون يبغضهم لا ألوى على ذكرهم هنا، وممن يكن إليهم أسمى آيات الاحترام والتقدير المصور العظيم والذي ارتبط اسمه دوماً بجريدة الحياة (جوردن باركس)، فقد نجح مالكولم في إقناع المبجل (أليجاه محمد) بالسماح له بالتصوير ونشر الأسرار العليا لبرنامج المسلمين السود التدريبي للدفاع عن النفس، توثيقاً بجريدة الحياة، فكان باركس هو الوحيد الذي أحيط بهذا الشرف الذي لم يمنح قبله لغير المسلمين، ما عدا رجال البوليس وبعض ممثلي الوكالات الذين تسللوا خفية بذريعة مؤازرتهم للجماعات الإسلامية، فعلق مالكولم على هذا الصحفي قائلاً "إن نجاح هذا الرجل في غياهب المجتمع الأبيض لم يطفئ جذوة انتمائه للأصالة السوداء". ورجل آخر يكن له نفس الاحترام، الممثل (أوسي ديفيذ)، حيث قال لي يوماً "أريد أن أعرفك بشخص من أروع السود".

وفي جريدة هارليم الأسبوعية (امستردام نيوز) يعجب بالكاتب اللامع (جيمس بوكر) والمحرر التنفيذي (جيمس هيكس) "فهو ذو عقل متفتح لا يجامل الرجل الأبيض"، وأن (بوكر) "مراسل صحفي مميز"، كانت انطباعاته حسنة عن (السيدة بوكر) عندما التقى بها.

كما كان له الفضل في تعريفي باثنين من أصدقائي الآن، دكتور (إيرك لونكولن)، وذلك في زمن تأليفه لكتاب (المسلمون السود في أمريكا) وكان يقدر الاهتمام الذي ولاه (لونكولن) لهذا الكتاب، والسيد (لويس لوماكس) وله مؤلفات عن المسلمين، ويعجب مالكولم بأذنه وعينه المتصيدتين للأخبار الطازجة "متى ما رأيت لوماكس مولياً في اتجاه ما، حزمت أمرى ووليت خلفه لأنني أعلم أن هناك شيئاً". كما يعجب بالمؤلف (جيمس بولدين) "يا له من رائع إنه يربك البيض بكتاباته، ويضايقهم حيناً أكثر من أي شخص عدا (أليجاه محمد)". كما يقل احترامه للوزراء السود لأن معظمهم هاجم المسلمين السود، ماعدا إعجابه المتردد بالدكتور (مارتن لوثر).

كما سمعته يتحدث بامتنان عن الأب المبجل (يوجين) بكنيسة الرب المشيخية بهارليم "رغم أنه واعظ ولكنه مقاتل جيد من أجل السود"، وعلمت مؤخراً أن الأب المبجل الصريح العبارة قد اختلى بمالكولم وشجب سلوكه المشاغب بهجومه على رجال الدين من السود.

كما أعجب بالأب (آدام كليتون) ودوره في الكونغرس "سأستقيل لو يملك السود عشرة من أمثاله في واشنطن"، كما لديه نفس المشاعر لرجل مجلس نيويورك، المحامي (بيرسى ستون) والذي أصبح لاحقاً محاميه الشخصي.

من بين الأساتذة الزنوج الذين قابلهم في جامعاتهم وهم يحاضرون لم يعجب إلا بـ(كينيذ كلارك)، "هناك عقول من السود يفضلون النوم" كما وصفهم مالكولم في إحدى هفواته. فقد كان ينفر من نخبة المتعلمين من أولئك المهنيين في مجتمع الزنوج، حيث يكثر فيهم من يهاجم المسلمين السود، لهذا السبب فإن كثيراً من هجماته كانت ضد ما يسميهم (سدنة العم توم، حملة الدكتوراه)، حيث يصفو له تجريدهم في معاهد التعليم العالي.

كان أكثر ارتياحاً وسعادة في الأماكن التي شهدت طفولته وصباه بين أبناء جنسه، فعندما صحبته مرة إلى ما درج على تسميته "جولاتي اليومية النادرة"، حول شوارع (هارليم) بين الزنوج، كان يزرع المنطقة جيئة وذهاباً، خصيصاً في ما سماه بـ "بالوعات السود التي نشأت في حضيضها، رهينة الفقر ذات المعدلات الفائقة لمدمني الحشيش والخمور"، كان بطلاً حقيقياً، يحف كل من يقابله بابتسامة عريضة وقد كان حديثه هادئاً وديعاً "هذا ما يريده منكم الشيطان الأبيض يا أخوتي، أن تسكروا حتى يجد العذر في رفع الهراوات فوق رؤوسكم". كما أذكر أنه وقف منحنياً لعدة نساء طاعنات في السن "عماتي، هل عرفتنّ رجلاً أبيض يأخذ منكنّ ولا يفعل لكنّ في المقابل شيئاً؟"، فهتفت إحداهن "بالتأكيد" فانخرط الجميع في الضحك، ثم واصلنا المسير مودعين من تركناهم وهم معجبون "أنه محق".

في إحدى جولاتنا المسائية وفي إحدى الأركان استمعنا إلى رجل كان يخطب في جمع صغير ملتفين حول منصته، وكانت المنصة عبارة عن صندوق مستطيل قائم يرتفع بجانبه العلم الأميركي "لا أومن بهذا العلم اللعين ولكني أحترمه، إنه هنا لأنني لا أستطيع أن أقيم أي لقاء جماهيري دونه، وإلا سنحت الفرصة للبيض بإيداعي السجن. ولهذا السبب أقف بينكم متحدثاً عن هؤلاء المتبجحين الذين شبعوا من دماء وعظام شعبنا". فعلق مالكولم مبتسماً "إنه يلمس بيت القصيد".

كان يستهجن تقليعات الشعر الوهاج المنمق بالمساحيق، وعشاقه من الزنوج، فكان ينبههم بأسلوب لا يخلو من اللطافة "أووه يا إخوتي، استدرجكم البيض فتنكرتم على خلقكم حتى وضعتم المساحيق في شعركم لتبدوا مثلهم".

وكانت مجموعة أخرى من النساء بجانب إحدى البقالات التي ذهبت إليها تاركاً مالكولم يتحدث على الطريق، كن يعلقن على محاضرة مالكولم إكس التي سمعتها في المسجد رقم (7) في يوم من أيام الأحد قائلات "أووه فاشتعل غاضباً، فقد أثاره ذلك الأبيض، فأخبرنا بأننا أحفاد ملوك وملكات ولم أكن أعرف ذلك"، فسألت امرأة أخرى "هل تصدقين ذلك؟"، فأجابتها السيدة الأولى بشدة "نعم أصدق ذلك".

وأذكر عازفاً للجيتار يعزف ويغني لنفسه وحيداً على الطريق، حتى نظر فجأة وتعرف في الحال على شخصية القادم بخطوات سريعة فهتف "أوه . أوه" وحياه بتحية ساخرة " مرحباً برجُلنا" فاستلطف مالكولم ذلك، وأحبه الزنوج هناك و فاكهوه ولم تجر أسئلتهم بمثل : هل كان جالساً تحت لمبات الطريق مثرثراً مع المخمورين؟. أم هل كان منفعلاً عبر الراديو والتلفاز للملايين غير المرئيين؟، أم هل كان مدغدغاً جمهوراً صغيراً من البيض الراقيين بحديثه المنمق؟، "إن هوايتي الوحيدة هي استدراج مقدرة الزنوج على استهجاء كلمة (ني) بنفس الطريقة التي تنطقونها بها أنتم معشر المتحررين، إن قوة الرجل جاذبيته، ولست بالرجل الأوحد ذي النغمات المتعددة والذي يسحر الآخرين بمقدرته على استقطاب هذه الشعبية العالمية الخاصة، والذي مازال عملياً وتحررياً يجوِّد كل ما يقوله، سواءً كان ذلك بطريقة عامة أو خاصة وذلك بفضل المبجل (أليجاه محمد)".

وكنت أحتفظ لنفسي بسجل مزدوج من المفكرات. وفي مرة لا حظني مالكولم متنقلاً من مفكرة إلى أخرى فسألني بفضول لماذا ذلك؟، فأخبرته بالسبب، كانت إحدى المفكرات أدخرها للكتاب والأخرى لملاحظاتي الشخصية المتعددة عنه، "ولكن من المفترض أنك قد كتبت ما يقارب المليون كلمة حتى الآن؟" ، فأجبته "ربما". "هؤلاء البيض حمقى، وسوف أثبت ذلك، هل تعتقد أنهم سيروجون لشخص يوسعهم ضرباً رداً على ما فعلوه به من قبل ؟".

وقال لي ذات مساء "من فضلك قل الحقيقة، لقد سافرت كثيراً، هل سمعت أي شيء؟" ، فلمحت إلى غموض السؤال، فنسى الأمر وتحدث في موضوع آخر. نعم من مالكولم إكس نفسه رأيت أو سمعت أشياء قليلة غير عادية والتي حصرتني في مدى من التعجب والتخمين، ولما لم أجد لذلك دليلاً طردت الفكرة بأكملها. مرة أوقفتنا الإشارة الحمراء وكنا في تقاطع الطرق، وكانت سيارة أخرى عليها رجل أبيض قد وقفت بعيداً، وعندما رأى الرجل مالكولم ناداه على الفور "لا ألوم قومك لإلتفافهم حولك لو كنت زنجياً لتبعتك أيضاً، للحفاظ على روح القتال"، فرد على الرجل بإخلاص "أتمنى أن يكون عندي صفحة بيضاء لأمثالك من البشر". ثم تغيرت الإشارة وانطلقت السيارتان فقال "أرجو أن لا تكتب ما سمعت وألا تكرره على الإطلاق، فإن السيد (أليجاه محمد) سيغضب من ذلك"، وبرزت أهمية ذلك الموقف عندما فكرت فيه مؤخراً، فقد كانت المرة الأولى التي تحدث فيها بطريقة تنتقص من احترامه لـ (أليجاه محمد).

في نفس الوقت كانت المخطوطات التي استرجعتها من مالكولم تنطق عباراتها المبهمة على النحو التالي "ما زالت حياتي إحدى المتغيرات".

حدث ذلك في شهر سبتمبر 1963م، كان ثمة شيء يزعجه ، وعندما قرأت (امستردام نيوز) لذلك الأسبوع، أدركت السبب، حيث ذكر (جيمي بوكر) في عموده عن خلاف بين مالكولم و(أليجاه محمد)، وكشف بوكر لاحقاً أن مالكولم إثر عودته من عطلة خاصه قد انقض مع ثلاثة من أتباعه على مكتب (الجريدة) من جراء هذا المقال، وهتف غاضباً "أريد رؤية جيمس بوكر، ليس هنالك حرب بيني وبين أليجاه محمد، وأنا أؤمن بالسيد محمد وأفديه بحياتي".

ويصدف من حين إلى آخر عندما أكون برفقته أن نلتقي بنفر من زعماء المسلمين ، وعندما يصدف انفرادي بهم كنت أعتقد أنني قد اكتشفت شيئاً أقل من الأعجاب الكامل يكنه له أصدقاؤه، ولكن كنت غالباً ما أراجع نفسي وأصحح فهمها، ففي غضون ذلك كنت أنا ودكتور (إريك لنكولن) عبر التلفون دائماً ما نتفق في أن بذور المشكلة غالباً ما تكمن في أنه كلما أفرط مالكولم إكس في مدح أليجاه محمد ركز جمهور العامة والوسائط الاعلامية على أسلوبه الدرامي وإفصاحه المبين. ولم أفكر مع ذلك فيما حزم أمره عليه، لم ينبث ببنت شفة، على الأقل لشخصي الحميم، حتى أصبح ذلك الصدع الماثل حقيقة عامة.

عندما تركته في ذاك الصباح ، وبهذه المناسبة طلب مني أن أهاتفه في الساعة التاسعة صباحاً بمنزله، واستمر التلفون يرن بطريقة غير معتادة، فأجابتني الأخت بيتي بصوت مجهد، وعندما حضر مالكولم كان صوته مختلفاً هو الآخر، فسألني "هل سمعت الراديو أو شاهدت التلفاز؟. ولما أجبته بالنفي، طلب مني فعل ذلك على أن يهاتفني لاحقاً. ذهبت وتصفحت الجريدة وقرأت بتعجب وذهول أن مالكولم إكس تم إيقافه عن العمل من قبل أليجاه محمد، والسبب المذكور هو تعليقه على اغتيال الرئيس كنيدي "آن للفراخ أن تجثم في أوكارها".

واتصل بي بعد ساعة، وقابلته في مكتب جريدة المسلمين السود في هارليم، مبنيان يطلان على شارع (لينوكس) عبر الجامع والمطعم. وقد كان جالساً خلف مكتبه الحديدي ذي اللون البني الفاتح وقبعته البنية موضوعة أمامه على ورق النشاف الأخضر، وكان يرتدي بذة سوداء وسترة وقميصاً أبيض وربطة عنق ضيقة أشبه بسمكة الزعنفة الشراعية، ورجلاه الكبيرتان اللتان ضمهما حذائه الأسود اللماع تدفعان الكرسي الذي تأرجح في حركة بندوليه من الأمام للخلف بينما كان يتحدث في التلفون.

"أتألم من أي عداء يبدر من طرفي حيال السيد محمد، كل ما يقوله المبجل محترم عندي، أؤمن إيماناً كاملاً بحكمته وسطوته"، وكان التلفون يعاود الرنين كلما وضع السماعة "السيد بيتر قولدمان، لم أسمع منذ مدة، حسناً سيدي، سألزم الصمت"، ثم يرد

على نيويورك تايمز قائلاً "نعم قام بإيقافي عن الظهور في المناسبات العامة بسبب النغمة المعهودة، أأكد لك أنني ممتثلٌ تماماً لحكم السيد محمد، لأن حكمه دائماً ما يقف على أرضية صلبة من التفكير الحكيم". "أما بالنسبة للـ (أس . بي . سى)، أعتقد أن أي شخص يرغب في محاسبة الآخرين، يجب أن يتعلم أولاً كيف يتقبل محاسبة نفسه".

بعد ذلك ولعدة أسابيع تجلت على محياه صورة الندم، رغم محاولته الجاهدة لإخفاء ذلك، كانت مؤخرة عنقه محمرة دائماً، فلم يسفر عن غضبه في كلمات يصبها على الجمهور. أجريت معه حوارات قليلة في تلك الأيام، فقد كان مشغولاً بالرد على التلفونات، وذلك لم يؤثر في شيء، فقد كنت أملك الحجم المطلوب من المعلومات ما يصلح لأن يكون سيرة ذاتية. وعندما يأتي لزيارتي كان يبدو مهموماً، وأشعر بدخيلة نفسه الثائرة اليائسة رغم محاولاته الجادة لإخفاء ذلك.

وكتب في ليلة ما "كيف تستطيع تغيير إمرئٍ وأنت تخرسه بذلك؟ (جون فيسكاونت مورلي)". وفي نفس الليلة كتب "أنا هابط إلى الدرك حتى يلتقطني، ولكن كيف ذلك ونحن نلتقط بعضنا البعض؟".

وعندما تعذر لقاؤنا لعدة أيام أرسل إليَّ قائلاً "لقد ألغيت كل المناسبات الجماهيرية والارتباطات لعدة أسابيع، بات من الأسهل أن ننهي هذا الكتاب، فلتطور الأحداث الجديدة فمن السهل لشيء يقال أو يفعل في الصباح أن يُلغى بغروب نفس اليوم".

فضغطت نفسي لإخراج الفصل الأول (الكابوس) في شكل يمكن مراجعته، وعندما جهزته في المسودة الصالحة للقراءة ، فجأة جاءني مسرعاً بسيارته، وأدركت كم هو مؤلم بالنسبة له أن يبقى رهين منزله خاملاً بعد المستجدات الأخيرة، وتقديراً لنفسياته دار حديثي عن الأخت (بيتي).

فأخذ بتقليب صفحات المخطوطة لأول مرة، معيداً قراءة الفصل مُمرراً قلمه الأحمر الحاد بين الفينة والأخرى على أحد الفقرات وهو يصيح "لا يصح أن نقول (مباركة الله)، ولكن (الثناء على الله) تعبير أحق لإجلاله". وفي المواضع التي تشير إلى نفسه وإخواته وإخوانه وضع خطاً أحمر حول كلمة نحن (الحملان)، فصرخ بحدة إن هذا التعبير يستخدم للأغنام.

في تلك الأيام سافر مالكولم وأسرته إلى ميامي بدعوة من (كوزيس كليى)، هدية منه بمناسبة العيد السادس عشر لزواجهما الميمون، فقبلوا الدعوة بشكر وعرفان، وكانت تلك أول عطلة للسيدة (بيتي) خلال ست سنوات من الريجيم الصارم كزوجة رجل مهم، وبالنسبة له كان ذلك لحفظ ماء وجهه ولشيء في نفس يعقوب.

وبعد فترة وجيزة من عودته أرسل لي رقم هاتفه عبر التلغراف في أحد الفنادق، فاتصلت به فرد قائلاً "لست مراهناً، ولو أنت كذلك فيمكنك الفوز إن راهنت على (كازيوس) ليهزم (ليسن)"، فضحكت من جراء ذلك ، فقال "تذكر ما قلته لك عند نهاية الحرب".

استلمت خطاباً به صورة ملونة لشمبانزي في أدغال القرود في ميامي، حيث علق مالكولم في الاتجاه المعاكس "مائة عام بعد الحرب الأهلية، واكتسبت هذه المخلوقات اعترافاً أكبر وحرية واحتراماً في أمريكا أكثر من شعبنا الأسود". مرة أخرى استلمت ظرفاً وفي داخله قصاصة من عمود (إيرف كبسنيت) في (الصن تايمز)، كان قلمه الأحمر يحيط بعض الفقرات مثل "يتنبأ المراقبون بانشقاق في صفوف المسلمين السود، مالكولم إكس المخلوع والذي كان بمثابة الرجل الثاني في المنظمة، متوقع أن يكون جماعة منشقة لمعارضة السيد أليجاه محمد"، بطرف هذا الموضوع علق مالكولم إكس "تخيل هذا".

ثم هاتفني قائلاً "كان ليل عجيب من الإثارة عندما هزم (كلي) (ليسن)، كان الطرف الغالب في جناحه الخاص بالفندق. ثم استرسل مالكولم في وصف الأحداث ذاكراً لي أسماء بعض الحضور، "إن الملك ذو الثقل الجديد كان بالغرفة المجاورة لغرفة نومي، جاء ليأخذ قيلولته". بعد أن حدثني بصدق نبؤته للحرب التي تنبأ بها حدثني أن أتطلع إلى (كلي) كأعظم شخصية في العالم "لا أدري هل أنت مستيقن من الأهمية العالمية لذلك، لحقيقة كونه أول بطل مسلم".

في اليوم التالي أجرى (كوزيوس) حوارات مع الصحف والتي دارت حول عقيدته كمسلم أسود، فظهرت صورة مالكولم مقدماً كوزيوس لعدد من الدبلوماسيين الأفارقة في أروقة المقر الرئيسي للأمم المتحدة بمدينة نيويورك وقد طاف به أرجاء هارليم وأماكن أخرى "إنه صديق ومستشار ديني".

قطعت شوطاً كبيراً في الكتاب، وكنا نتحدث في التلفون كل ثلاثة أو أربعة أيام عن وضعه الجديد بعد خلافه مع (المسلمين السود)، فبدأ في سرد أقوال أشبه بالإحراج عن أليجاه محمد.

طلبت مني مجلة (البلى بوي) إجراء حوار مع البطل الجديد (كوزيس كلي)، وعندما طلبت من مالكولم الترتيب المطلوب للتعارف معه علق مترددا "من الأفضل أن تسأل غيري ليقوم بذلك"، واستغربت من اجابته، ولكن تعلمت أن لا أضغط عليه، فتلقيت خطاباً "عزيزي أليكس هالي. هل يمكن أن تعد خطاباً لائق الكلمات أعدل بموجبه مضمون العقد بأن ينقل مباشرة كل الريع المجنى من الكتاب إلى مسجد المسلمين (أي.

أن .سي), وفي حالة وفاتي ينقل الريع إلى زوجتي بيتي؟ . فإن ذلك سوف يشعرني بالراحة . مالكولم إكس". كما علق "كيف تكتب السيرة الذاتية وقد تتغير مفرداتها بسرعة مثل هذه".

وقرأت بعد ذلك أن الإشاعات تُسمع عن تهديدات طاولت حياته ، وكان هنالك مقال في جريدة (امستردام نيوز) ، و ثمة تعليق أسفل الصورة [مالكولم إكس يتحدث عن تهديدات بالموت ، ذكر مالكولم أن زملاء سابقين لصيقين به في مسجد نيويورك أخبروه بإرسالهم لقتله. "الحمدلله علمت بالمؤامرة من المكلفين بأنفسهم. هؤلاء الأخوة سمعوني ممثلاً ومدافعاً عن السيد محمد ردحاً طويلاً مما اضطرهم لرد كل الأكاذيب المحبوكة عني مباشرة دون الرجوع إلى شخصي لاستجلاء الحقيقة"] .

اتصلت به فقد عدت قلقاً عليه، كان صوته مضطرباً ، فذكر لي أن اهتمامه الأول أن يذهب كل مال يجنيه في المستقبل لزوجته أو تنظيمه الجديد، ومن المفترض أن يكتب وصيته ولكنه لا يملك ما يوصي به لأحد، فإن حدث له مكروه الآن وبعدم الوصية حتماً ستطال أسرته الفوضى التي دفعته إلى أن يعد بندقيته في المنزل للدفاع عن نفسه.

مسجد المسلمين (أي . إن . سي)، كان بمثابة تنظيم جديد أسسه مالكولم، حيث كان في تلك الأوقات يتكون من قرابة الأربعين أو الخمسين مسلماً والذين هجروا قيادة (أليجاه محمد).

بواسطة رفيق مقرب (لكوزيس كلي) والذي ثنّاه لي مالكولم، حُدد ميعادي مع ذلك البطل ذي الوزن الثقيل، فسافرت إلى نيويورك لإجراء الحوار لجريدة (البلي بوي). فهاتفت مالكلوم إكس فنفت زوجته بغلظة واختصار تواجده بالمنزل، فتحدثت مع إحدى المسلمات السود والتي تعرفت بها قبل اعتناقها للإسلام، وكانت من المعجبين بمالكولم وفي الاتجاه الأصلي للجماعة الدينية "سأحدثك عن ما يقوله الكثيرون في المسجد، أنت تعلم أن الأمر مثل طلاق الرجل لزوجته فهو يرغب بعد ذلك رؤيتها ولو مرة".

فى الحوار مع (كوزيس كلي) بجناحه ذي الغرف الثلاثة في فندق (ثيرزا) بهارليم، بالطبع دارت الأسئلة حول عضوية (كلي) الإسلامية، وذلك تمهيداً لما حدث أثناء علاقته اللصيقة بمالكولم إكس، حتى (كلي) ذكر قائلاً " يجب أن لا نطرح السيد محمد على الأرض، ثم نمضي بعد ذلك. لا أريد أن أتحدث عن مالكولم أكثر من ذلك".

أليجاه محمد في مقره بشيكاغو يزداد تأثره كلما جيء بذكر مالكولم إكس، فقد علمت من أحد المسلمين من بطانة (كلي) نقلاً من السيد محمد "مضى أخونا حيث يصبح

رجلاً عظيماً، جعلته رجلاً ذى شأن، كنت على وشك أن أجعله عظيماً. إن المؤمنين من المسلمين السود يتنبؤن بعودته إلى الطريق المستقيم بواسطة التائبين من المسجد رقم (7)، والذين خرجوا عليه بعد شعورهم بالخيانة، وسوف يوقع الله عقابه على المنافقين". كما ذكر السيد محمد في إحدى المرات "إن مالكولم يحطم نفسه، ولست راغباً في قتله، أفضل أن أراه حياً ليعاني من خيانته".

كان الرأي العام لمن حادثتهم من غير المسلمين، أن مالكولم إكس أصبح قوياً ومؤثراً بما فيه الكفاية، الوزير الذي في خاتمة المطاف سيشق عضوية المسجد إلى معسكرين متشاكسين، وأنه في مدينة نيويورك على الأقل قد وضع حداً لقوانين وأحكام أليجاه محمد التي لا تقبل الجدل. ثم عاد مالكولم إكس من بوسطن وفيلاديفيا وقضينا ردحاً من الزمن في غرفته رقم 1936 بفندق (أمريكانا)، حيث ذهبت عنه أمارات الراحة، كان يخطو إلى الباب ويفتحه وينظر فوق وتحت الدهليز ثم يقفل الباب مرة ثانية، وقال لي متعجباً "يا لها من معجزة أن أعيش لأشهد ميلاد هذا الكتاب، لا أقولها متشككاً"، ثم انحنى إلى الأمام ولمس غطاء السرير الذهبي "أقولها كما أقول الآن: هذا غطاء سرير ذهبي". فكانت بادئة للخوض في التفاصيل، حيث قال أن حديثه عن اغتيال الرئيس كنيدي، لم يكن السبب في خلعه من جماعة المسلمين، "لم ينطق أحد من قبل عندما تفوهت بالأقسى والأمرَّ من ذلك، إن السبب الحقيقي هو الحسد الذي طفحت به شيكاغو،ثم وجد فرصته المواتية؛ فلقد اعترضت على أخلاقيات الرجل الذي أُعلن أنه أكثر خُلقاً من غيره".

فذكر لي أنه قفز بعضوية أمة الإسلام من 400 فرد منذ انضمامه إلى ما يقارب 40,000 عضو، حيث كان أغلبهم من العجائز، وأكثرهم يعجز حتى عن النطق باسم السيد محمد، حيث كانوا يقبعون خلف الصفوف.

رغم محاولاته الجاهدة لكبح جماحه، إلا أنه كان منفعلاً " لا شيء يخيف المرء في أوقات العمل أكثر من الجهل".

وتحدثت عن حكايات عامة عند لقائي (بكوزيس كلي)، فسألني في النهاية عما قاله (كوزيس) عنه، فكتبت في أسفل بطاقة الفهرس مجيباً على سؤاله، حيث خط بسؤاله في مقدمة البطاقة، فقد لمح إلى (كوزيس) بذلك مرتين، فحدق في الإجابة ثم إلى خارج النافذة وقام وتحرك، وكانت من الأوقات القلائل التي نطق صوته عاجزاً عن كبت آلامه عندما قال "حسبته أخاً صغيراً ، تربطنا روابط الدم، ولست ضده، إنه شاب لطيف وأنيق ولكنه ترك نفسه لاستغلال الآخرين فقادوه نحو الضلال.

وفي مرة أخرى بالفندق كان صوته أقرب إلى البكاء، وكانت المرة الوحيدة التي يستخدم لبني جنسه كلمة واحدة، حيث ظل يتحدث عن كيف استطاع بناء (منظمة المسلم) ، في الأيام الأولى ، عندما انتقل أولاً إلى مدينة نيويورك، حتى هتف بصوت مبحوح "كنا نملك أفضل منظمة يملكها السود، فحطمها أولئك (الزنوج)" .

وبعد أيام قلائل كتب قائلاً "تعلمنا الطفولة نحن الكبار أن لا نخجل من الفشل، أن ننهض ونحاول من جديد، فنحن الآن جد خائفين وحذرين من أجل الأمان فلذلك نحن منكمشون ومتصلبون وخائفون من الاجابة عندما يطرح السؤال لماذا يفشل الكثيرون؟، فالراشدون من أرباب العمر المتوسط، سلموا رقابهم للفشل".

كانت المكالمات التلفونية تتواتر عليه وهو معي بالحجرة، وكان يرد عليها قاصداً أن لا أتتبع مجرى الحديث، فكنت أتهرب بالذهاب إلى الحمام في مثل هذه الظروف، وكنت أغلق الباب وأفتحه عندما يصمت عن الحديث، آملاً أن يريحه ذلك، فحدثني لاحقاً أنه قد استمع إلى بعض المسلمين الذين ما زالوا ظاهرياً أتباعاً لأليجاه محمد بأنه (مُستهدف) ، "حدثني بعض أصحاب المكانة أن أكون حذراً في تحركاتي. لن أخاف على نفسي طالما أسرتي بأمان". كنت أعتقد أنه قد قرأ عن عزم منظمة المسلمين السود برفع دعوة لإجلائه عن منزله، وكنت متخوفاً أن يعيد كتابة الفصول التي تتعلق بحياته كمسلم أسود بالطريقة التي يحبها، فعبرت عن قلقي هذا فرد قائلاً "لقد فكرت في ذلك بالفعل، هناك أشياء كثيرة مرت بذاكرتي، أشياء رأيتها وسمعتها فطرحتها تماماً الآن، ولكني سأبقيها بالطريقة التي أردتها لها وسيكون كتابي هذه الطريقة" .

وبعد ذلك في 26 مارس1964 كتب مذكرة أخرى "سأقوم برحلة لعدد من الدول الإفريقية وتشمل زيارتي الحج لبيت الله الحرام بمكة والمدينة، تبدأ في 13 أبريل، أرجو الاحتفاظ بهذه المعلومة" .

وعندما سافر كتب رسالات لأغلب معارفه وكانت تحت توقيع "الحاج مالك الشباذ"، بعد ذلك في منتصف مايو اتصلت بي الأخت (بيتي) وجاءني صوتها مبتهجاً "مالكولم في طريق العودة". فوصل إلى البلاد على متن الخطوط الجوية لـ (بان أمريكا) في تمام الساعة الرابعة والنصف ، وكنت في نيويورك في يوم 21 مايو، فهاتفتني الأخت (بيتي) ثم صوته الرجولي، فرحبت بالحاج مالك الشباذ، فأخبرني بالمؤتمر الصحفي الذي سيعقده في الساعة السابعة مساءً في فندق (ثيريذا)، فوعد أن يأخذني بسيارته إلى هناك. وعندما توقفت السيارة الزرقاء وركبت على متنها، كان الحاج مالكولم إكس يبتسم بإشراق، مرتدياً بذة من النسيج القطني وشعر أحمر في أمس الحوجة إلى حلاقة ودقن كثيف، وكانت بصحبتنا الأخت (بيتي)، فابتسمنا لبعض ، كانت المرة الأولى

التي نلتقى فيها منذ أكثر من سنة، تحدثنا قبلها مرات عديدة في التلفون، ، كانت ترتدي نظارة سوداء وبذة زرقاء، وكانت حاملاً بابنها الرابع.

أقيم المؤتمر في قاعة بالفندق وهوعبارة عن مرقص مغمور بالأنوار الساطعة، جلس خمسون شخصاً بهدوء وهم يتفاكهون، مصورو التلفزيون والمراسلون الصحفيون في المقدمة، وبقية المرقص كان ممتلئاً بالزنوج من أتباع مالكولم والمستطلعين ومن يتمنون له الخير، فظهر في الباب وبرفقته (بيتي) يحمل ساعدها برفق، تبتسم باعتزاز فخورة بزوجها، استطعت تمييز (تايمز هاندلر) وقدمت له نفسي، فتصافحنا بحرارة وجلسنا على المنضدة، وكون المراسلون شبه دائرة أمام مالكولم إكس جالسين بالمنصة، فتواترت أسئلتهم، فكانت خبرته الخطابية ذات الاثنتي عشرة سنة خير معين له في صورته الجديدة.

"هل نفهم أنك أصبحت لا تعتقد أن كل البيض أشرار؟"، "هذه حقيقة يا سيدي ، إن رحلتي إلى مكة فتحت عيني، لم أعد شريك في العنصرة، عدلت تفكيري، وأعتقد أن البيض بشر". فتوقف لفترة ذات مغزى مقصود واستطرد قائلاً "ولكن ذلك حتى تولد هذه الحقيقة في مواقفهم الإنسانية نحو الزنوج. اختاروا لي صورة العنصري ولكني في الواقع لست كذلك، لا أدين البيض لأنهم بيض ولكن لأفعالهم، أدين السلوك الكلي للشعب الأبيض ضد شعبنا الأسود بصورة كلية".

وكان في سرده يضئ الغرفة بابتسامة الطفل المحببة. فسألوه عن ذقنه الأحمر الجديد وهل ينوى الاحتفاظ به؟، فأجاب أنه سوف يختبر نفسه أولاً هل سيعتاد عليه أم لن يستطيع ذلك؟. هل هو يناور الآن للانضمام لقادة الحقوق المدنية العظام؟ والذين سبق وأن هاجمهم بعنف؟، فأجاب "فلنفرض أن عدة رجال في سيارة متجهون إلى وجهة ما ، وأنت تعلم أنهم سالكون الإتجاه الخطأ ولكنهم مقتنعون أنهم في الاتجاه الصحيح، وفي نهاية المطاف اكتشفوا أنهم في الطريق الخطأ ولم يصلوا إلى هدفهم، وبعد ذلك حدثتهم واستمعوا إليك، إذن ما هو الطريق الذي ستسلكه؟.

وهكذا كان ، لم تتبدل أحواله، يوزن ويتفادى ويجاوب على الأسئلة. كان (هاندلر) بالقرب مني يسجل ملاحظاته ويتمتم "مستحيل، مستحيل كنت أتوقع نفس الشيء، كنت أفكر لو أُلقيت حصاة من نافذة خلف مالكولم، فسوف ترتطم في ممشاه ثمان مرات، خلف سنواته قبل أن تؤاتيه الفرصة لبيع المخدرات".

ثم بعد ذلك وأثناء الكتابة جاءتني المذكرة الدورية منه "أتمنى أن تسرع في الكتاب، لأسباب تتعلق بحياتي، كثيراً ما كتبته في السابق يمكن أن يتقادم بسرعة من شهر إلى

شهر، في قانون الحياة لا توجد ثوابت، ولا حتى الحياة في حد ذاتها طويلة الابتسام، عليه أنصحك أن تستعجل بكل ما أوتيت من سرعة" .

مذكرة أخرى كانت شديدة اللهجه تفيد بأنه استلم رسالة من الناشر تشير إلى استلامه شيك بمبلغ 2500 دولار، وذلك عند إكتمال العقد المبرم سلفاً، وعلى ضوء ذلك كان متوقع أن يدفع ضريبة الدخل الشخصي، "فكما تعلم حسب وصيتي المكررة أن هذه المعاملات قد اتفق عليها في تلك الفترة أن تذهب إلى المسجد، حقيقة لم أرى ذلك الشيك المزعوم حتى الآن!".

جرت الأمور على خير وجه وأرسلت إليه مسودات من فصول الكتاب ليقرأها، ففزعت عندما أعادهم، كانت هنالك فقرات خطّ أسفلها بالقلم الأحمر والتي تتعلق بأغلب علاقة أبيه وأبنه بـ(أليجاه محمد). فاتصلت به مذكراً بقراره السابق ، فضغطت عليه لو أن هذه الفصول تحمل إلى القارئ إلى ما سيموت في المستقبل، فإن الكتاب تلقائياً سوف يُسلب من الدراما والتشويق البنائي، فرد بخشونة "من صاحب هذا الكتاب؟" ، فقلت "أنت بالطبع، أعترض فقط بصفتي كاتبه"، فطلب مني أن أمهله لكي يفكر، كنت متوجساً من إعادة كتابة السيرة الذاتية على نحو مضاد لـ(اليجاه محمد)، فاتصل بي في أواخر تلك الليلة "آسف أنت مُحق، كنت مرتبكاً، أنسى ما أردت تغييره واترك الأمر كما هو".

ومنذ تلك الأوقات لم أعطه أي فصل لمراجعته إلا وأنا حاضر، مرات عديدة كنت أختلس النظر إليه وهو عابسٌ مترددٌ أثناء القراءة، ولكنه لم يسألني لتغيير أي شيء قاله، فقط تأسف على حياته تلك عندما قرأ الفصل (لاورا) ، فقال "كانت فتاة أنيقة وطيبة، لقد حاولت جاهدة أن تخلق مني شيء، ولكن انظر كيف قذفت بها إلى أحضان الدعارة والمخدرات، لقد حطمت تلك الفتاة".

ظل مالكولم مشغولاً جداً بحيث لم يستطيع زيارتي بالفندق إلا ما ندر، وحتى زياراته القصيرة أضفى عليها طابع (المحطات المركزية الكبرى). فعندما لا يرن جرس التلفون عنده يتأكد لي أنه متصل بشخص آخر مستدلاً بقائمة التلفونات بمفكرته، يجرى عدة مكالمات مع أشخاص عديدين بالشرق الأوسط وأفريقيا والذين هم في (نيويورك)، بعض هؤلاء جاء لرؤيته في الفندق معي. في البداية كنت أجلس بالقرب من النافذة منهمكاً في القراءة، بينما هم يتحدثون بباب الغرفة في صوت منخفض، فكان يعتذر لذلك وأتقبل الأمر. وبعد ذلك كنت عادة ما أخطو خارجاً إلى المدخل أو اهبط بالمصعد إلى الرواق، وبعد ذلك أراقب المصعد حتى يتسنى لي رؤية الزوار وهم يغادرون.

في مرة من المرات رن جرس التلفون حاملاً أسماء أشخاص من (إس. بي. سي) (سي. بي. أيه) و(سي. بي. إن)، وجريدة (نيويورك سيتي) و(الديلى أكسبرس) اللندنية وأفراد وشخصيات عديدة ، حتى أصبحنا أنا وهو لا نستطيع فعل شئ على الإطلاق. ثم حضر طاقم التلفزيون وملؤوا الغرفة لتسجيل حوار معه بواسطة معلق (سي.بي.أيه) "بيل بيوتل"، وعندما كان الطاقم يثبت الكشافات الضوئية على المجسم ذي القوائم الثلاثة، هاتفتنا محطة الراديو (ديتون أوهيو) آملةً في إجراء حوار مع مالكولم إكس عبر التلفون، فطلب مني أن أنقل موافقته للحوار في اليوم التالي في منزل شقيقته (إلاَّ) في بوسطن، كما اتصلت به وزارة الثقافة الغانية، فعدت إليه بمذكرة في اللحظة التي قال له المعلق التلفزيوني بيوتل "لن آخذ كثيراً من زمنك، عندي فقط بضع أسئلة غبية متوقعة"، فرد قائلاً وهو مازال محدقاً في مذكرتي "إن السؤال الغبي هو ما لا ينطق به "، ثم خاطبني قائلاً " من فضلك قل لهم سوف أرد عليهم".

وبعد ذلك وفي اللحظة التي بدأت الكاميرا في التنقل بين (بيوتل) و(مالكولم)، رن جرس التلفون مجدداً وكان على الخط المراسل الصحفي لمجلة الحياة (مارك كراو فورد)، فهمست إلى مارك بالمجريات، ثم طلب بجرأة أن أترك سماعة التلفون مفتوحة حتى يستمع إلى الحوار، فاستجبت لطلبه عسى أن يساعد ذلك في استمرارية الحوار الدائر دون مقاطعة.

كانت النسخة التي أعطيتها لمالكولم لمراجعتها على أحسن حال، فقد انهمك في القراءة صفحة تلو الأخرى، وبين الفينة والأخرى كان يرفع رأسه معلقاً "أتدري لماذا أحرز هدفاً صائباً؟، ذلك لأنني درست كل نقاط الضعف في هذا الوطن، فكلما اشتد عواء الرجل الأبيض ازددت يقيناً بنجاح الإصابة" .

في أحيان أخرى كان يضع في السرير المخطوطة التي يقرأها، وينهض من كرسيه، ويمشى جيئة وذهاباً، مداعباً ذقنه بيديه ثم ينظر إلى قائلاً " في هذا الفصل وفي هذه الفقرة حيث أخبرتك بوضع المسدس على رأسي وأصبحت ضاغطاً على الزناد وأخفتهم بذلك عندما بدأت السرقة" ، ثم توقف فجأة وقال "لا أدري هل من الضرورة أن أحدثك بهذا أم لا، ولكن أريد قول الحقيقة"، ونظر إلى ملياً واستطرد قائلاً "لقد اخرجت الرصاصة"، وضحكنا سوياً، فقلت له "حسناً أعطني تلك الفقرة حتى أقوم بتعديلها"، فرد قائلاً "أبداً أتركها كما هي، وإلا سوف يعتقد الكثيرون، أنه الخداع الذي مازلت أمارسه حتى اليوم".

وأيضاً عندما اطلع على فقرة اكتشافه لمكتبة السجن، رفع رأسه وقال "لن أنسى ذلك الـ (آرد فارك) العجوز". وفي مساء اليوم التالي جاءني من متحف التاريخ الطبيعي،

فقد عرف شيئاً عن (آرد فارك) إنها تعنى (خنزير الأرض)، "وهذا مثال حي عن أصل الكلمات، عندما تدرس فقه اللغة كما حدثتك من قبل سوف تعرف القوانين التي تحكم, أن الحروف الساكنة تفقد شكلها ولكنها تحتفظ بهويتها من لغة إلى أخرى".

ولكن ما كان يدهشني في ذلك اكتشفت أنه ألغى من برنامجه لقاءً حياً في الراديو والتلفزيون، ليبحث عن أصل كلمة (أرد فارك).

قبل فترة طويلة أقام مؤتمراً صحفياً وخاطب قائلاً "إن تنظيمي الجديد (منظمة الوحدة الأفريقية الأميركية)، منظمة غير دينية وغير طائفية، تهدف إلى وحدة الأفارقة الأمريكيين نحو رؤي وبرنامج بنائي لتحقيق حقوقهم الإنسانية، إن الـ (او. أيه. أيه. يو) الجديدة ظهرت لتكون إحدى المنظمات النضالية للقومية السوداء. كما أجاب على أسئلة كثيرة للمراسلين في حوارات لاحقة إن الـ(او. أيه. أيه. يو) تهدف إلى تغيير المجتمع الزنجي من اللاعنف إلى أساليب فعالة للدفاع عن النفس ضد الاستعلاء العرقي الأبيض في الوطن الأميركي.

أما عن السياسات فقد صرّح بعبارات مبهمة، مثل "متى ما استخدمت السلاح أو الاقتراع أدرك أن الأوان قد آن للتصويب الجيد. لن أضرب الأرجوزات المطيعة، بل سأضرب من يقف خلف تحريكها". وعندما سئل عن الميدان الذي سيمارس فيه نشاطه رد قائلاً "سوف أنضم إلى القتال أينما احتاج الزنوج إلى مساعدتي". ماذا عن تحالفك مع التنظيمات الزنجية الأخرى؟. فأجاب بسعيه نحو تكوين بعض الجبهات المتحدة مع بعض قادة الزنوج الذين اختارهم بنفسه، فإن (بي. سي. أيه. أيه. إن) على سبيل المثال يبلون بلاءً حسناً. وهل يمكن للبيض الانضمام إلى منظمته؟، "لو كان جون براون حياً، ربما مسموح له". كما أجاب على الأسئلة التي تنتقد تصريحاته في إرسال عصابات مسلحة إلى المسيسبي، فأجاب في ذلك "أنا في غاية الجد، لن يُرسلون إلى المسيسبي فقط، بل إلى أي مكان تُهدد فيه مجموعة سوداء من قبل المتعصبين البيض، لعمري أن المسيسبي هو أي مكان جنوب الحدود الكندية".

وفي وقت آخر عندما سألته (إفلين اكنقهام) مراسل (بيتسبيرق) بطريقة ما زحة "هل يمكن أن تقول لي كلمة أزين بها عمودي الخاص؟" ، فأجاب "كل من أراد أن يتبع طريقي، فليكن جاهزاً للذهاب للسجن أو المستشفى أو المقابر قبل أن يقرر الانضمام"، وعندما نشرت (إفلين) ذلك علقت "ابتسم وضحك ولكنه كان في غاية الحماس".

رزق بمولوده الخامس فأطلق عليها (جميلة لومُمبا). فعبرت جرسونة شابة بمنتدى هارليم عن سعادتها بهذه المناسبة وأهدت إليه لوازم المولودة الجديدة، فقال متأثراً بهذه اللفتة "ليتني عرفتها من قبل ، كما اعرفها الآن". وقد كان غاضباً بوضوح من

الاستطلاع الذي أجرته (نيويورك تايمز) عبر الزنوج بمدينة (نيويورك)، فخلصت إلى أن الثلاثة الأرباع أطلقوا على مارتن لوثر [صاحب الاتجاه الأفضل للزنوج] ، وخمسهم صوت لقائد (بي. سي. أيه. أيه. إن) "روى ويلكنيس"، بينما 6% صوتوا لمالكولم إكس، فعلق قائلاً "إن أعظم القادة في التاريخ لم يُعترف بهم إلا في أرض الواقع".

في يوم من أيام منتصف صيف عام 1964، اتصل بي وحدثني عن سفره خلال الأيام الثلاثة القادمة في رحلة خارجية لمدة ستة أسابيع تبدأ بالقاهرة، في غضون ذلك كان الصيف الطويل الحار المتنبأ به قد بدأ ببعض الانتفاضات وأحداث الشغب للزنوج في ضواحي (فلاديلفيا)،(روشستر)،(بروكلين)،(هارليم) ومدن أخرى، وكتبت (النيويورك تايمز) عن اجتماع ضم المثقفين الزنوج تم الاتفاق فيه أن (مارتن لوثر) سيضمن ولاء الطبقتين الزنجيتين، العليا والوسطى، ولكن مالكولم إكس وحده يستطيع أن يضمن ولاء الطبقة الدنيا، [إن الزنوج يحترمون مارتن لوثر ومالكولم إكس لأنهم يستشعرون في كليهما نزاهة نادرة المثال، لن يبيعا قضيتهم، ومالكولم إكس لا يمكن إفساده، فالزنوج يحترمونه لأنه قادم من الطبقة الدنيا، فهو فرد منهم. سيلعب مالكولم دوراً شاقاً لأن الصراع العنصري قد انتقل الآن إلى الشمال الحضري، لو أن دكتور (كينق) مقتنع بأن يضحي بسنواته العشر من القيادة المتألقة، سيكون مجبوراً لمراجعة مواقفه، هناك اتجاه واحد يمكن أن يسير فيه، اتجاه مالكولم إكس] . أرسلت إليه مقطعاً من هذا المقال في القاهرة.

في (واشطن دي . سي) ومدينة نيويورك، فإن الأفراد والمنظمات المدنية والحكومية والخاصة كانوا مهتمين بشدة لما سيقوله مالكولم في الخارج وتخمين ما سيحدث عندما يعود إلى أمريكا.

تلقيت مكالمة هاتفية من صديق مقرب طلب مني نيابة عن غيره معرفة حضوري إلى مدينة نيويورك للالتقاء مع مسئول حكومي رفيع المستوى مهتم جداً بشأن مالكولم إكس، وبالفعل حضرت إلى نيويورك ورافقنى ذلك الصديق إلى مكاتب مؤسسة خاصة واسعة مشهورة بأنشطتها وتبرعاتها وإسهاماتها في مجال حقوق الانسان. التقيت برئيس المؤسسة وبدوره قام بتقديمي إلى السيد رئيس قسم الحقوق المدنية بإدارة العدل السيد (بوركي مارشال)، وكان شديد الاهتمام بتمويل السيد/ مالكولم إكس، خصيصاً عندما طرد من (المسلمين السود). فأخبرته ولحد علمي أن عدة مدفوعات من الناشر قد ساعدته، مع ما كان يستلمه فى منظمته من تبرعات، كما حدثته عن استلاف بعض الأموال من شقيقته (إلاَ) لرحلته الاخيرة خارج البلاد. ومؤخراً قامت (ستردى كينق بوست) بشراء حق تلخيص الكتاب مقابل مبلغ مادي

محترم استلمه على الفور. فاستمع (مارشال) باهتمام، وسألني عن جوانب أخرى من حياة مالكولم ثم شكرني. فكتبت إليه في القاهرة عن هذا الحوار فلم يأتني الرد.

قامت مجلة (الستردى كنيق بوست) بإيفاد مصورها (جون لاونويس) إلى القاهرة خلف مالكلوم، فظهرت صورته في العدد الثاني عشر من شهر سبتمبر ، فأرسلت إليه نسخة بالبريد الجوي و خلال أيام قليلة استلمت منه مذكرة شديدة اللهجة معبراً فيها عن سخطه إزاء المقال الافتتاحي للمجلة بخصوص قصة حياته (لو لم يكن مالكولم إكس زنجياً لكانت سيرته ليست أكثر من مجرد حكاية نفسية خارقة للعادة، إنها قصة السارق ومروج المخدرات والسجين، مع تاريخ أسرى غارق في الجنون ، والذي نال من أوهام المسيحية وانطلق يدعو للعداوة الأخوية عبر دين مشبوه] . فكتبت إليه ألا يحملني مسؤولية ما كتبته المجلة، فكتب لي معتذراً "ولكن أرجو أن تتوخي الحذر الشديد في المستقبل".

كانت عودته من أفريقيا مشكوكاً في أمرها أكثر من عودته من الحج، عدد كبير من أتباعه ومن يتمنون له الخير استمروا في التجمع في مبني العائدين من وراء البحار بمطار كنيدي. وعندما دخلت كانت الكاميرات موضوعة في الدور الثاني لتصوير كل الزنوج الداخلين، وكانوا غالباً في ملابسهم العادية يتحركون هنا وهناك، وكان المستقبلون يحيونه عبر الزجاج المطل على طابور تفتيش جمارك الولايات المتحدة، وكانت ثمة رايات من الأقمشة كُتب عليها بوضوح (مرحباً بك في ديارك مالكولم)، ثم ظهر للعيان يخطو في إحدى طوابير التفتيش الجمركي، فسمع الهتاف فنظر إلى أعلى مبتسماً لسعادته.

أراد مالكولم أن نجتمع ليفيدني بتفاصيل رحلته الأخيرة ما تمليه عليه "رغبته" لذكره في الكتاب وأنه سيخصنى فقط بالنقاط العامة، لأن جميع مدوناته التي يحتفظ بها بعناية قد تظهر في كتاب آخر. وكانت لنا جلسات مكثفة بالفندق بحجرتي، فاختار من مفكرته ودونت بدوري ثم قال "أريد تدويل قضيتنا، وإشعار الأفارقة بوحدة هويتهم معنا نحن الأفارقة الأمريكيون، فقد جعلتهم يفكرون بذلك، أنهم إخوتنا في الدم وجميعنا ينحدر من سلف واحد. هذا يوضح حب الأفارقة لي والآسيويين كذلك لأنني رجل دين" .

خلال أيام لم يستطع رؤيتي، فاتصل واعتذر، هاجمته عدة مشاكل ذكر لي بعضها والآخر سمعتها من غيره، وأغلبها ينصب في عدم الارتياح المستشرى في منظمته (أو. أيه . أيه. يو)، فمكوثه بعيداً في الخارج ثلاث مرات وتصريحه المسبق لذلك قد هبط بالروح المعنوية لأتباعه خصيصاً الصفوة منهم ، وهناك إحساس عام بأن اهتمامه المتناقص لأتباعه لم يفضِ به إلى توقع ما يشغل بالهم ببقائه في برجه العالي، فقد سمعت من أحد أتباعه أن هنالك خيبة أمل متزايدة تسرى في التنظيم.

في هارليم على أوسع أبوابها، في المطاعم والحانات، في الشوراع والزوايا والمنحنيات، يمكن أن تسمع نقداً جارحاً لمالكولم إكس أكثر من ذي قبل، وينجلى ما يؤخذ عليه في شكوتين أساسيتين، الأولى؛ أن مالكولم أكس يتحدث فقط بينما هناك منظمات للحقوق المدنية كانت تعمل ، مثل (أي. آر. أو. سي) ومنظمة (سي. سي. إن. أس) وبعضهم من شعبية دكتور(كينق) كانوا يتلقون الضرب على رؤوسهم. الشكوى الثانية ؛ وهي الأخطر؛ هي أن مالكولم متردد بجانب غموض الرؤية المستقبلية في طرحه لمبادئه، فهو لا يعرف ما يؤمن به وكيف يُتبع، فما أن يستقر على شيء إلا وانتقل لآخر، إن الشكوتين في حد ذاتهما ليست في صالح الصورة الحية للجذوة المشتعلة مالكولم إكس، كما لم توليا اهتمام الرأي العام المحلي إلى أهمية الحوجة لمنظمة (أو. أيه. أيه. يو).

قضت المحكمة بوضوح بمغادرة مالكولم وأسرته لمنزلهم بالـ (مهيرست) ليعود إلى رافع الدعوى وصاحبه الشرعي (أمة الإسلام)، كما واجه مشاكل مباشرة أخرى تشمل التمويل المالي وضمن ذلك نفقات زوجته وبناته الأربع، هذا مع تفرغه الكامل لمنظمته. عند عودته أرسل إليه الوكيل شيكاً بمبلغ محترم فقال لي ضاحكاً " لقد تبخر المبلغ لا أعرف أين ذهب".

ثم ما لبث وأن استغرق في أنشطته العديدة، كتب وهاتف بالتلفون لقبول عدة مواعيد للحديث وأغلبها من الجامعات والكليات تهدف إلى استعراض فلسفاته ، وكسب مبلغ يتراوح بين 1500 – 3000 دولار عبارة عن منحة إكرامية، إضافة إلى نفقات السفر.

وعندما كان في نيويورك كان ينفق أوقات كثيرة في تأسيس مكتب لمنظمته (او. أيه. أيه. يو) بأثاث بسيط في الطابق الأوسط بفندق (ثيرذا)، محاولاً أن يخفف بعض الشيء من مشاكلها المعقدة "أنا لا استعرض بالعدد" قال متجنباً أحد استفسارات المراسلين الصحفيين " إن أقوى جزء في الشجرة هو الجذر، ولو تعرت الجذور ماتت الشجرة، لماذا؟ لأن لنا أعضاء غير منظورين من كل الأنواع، وبعكس القادة الآخرين أنا متساهل في اتصالي مع أي زنجي، أياً كان نوعه في أرض هذا الوطن" .

حتى في أوقات الوجبات بمكانه المحبوب (النادي. 22)، أو أي مكان آخر بهارليم، كان يندر أن يواصل وجبته بحضرة من يأتي لتحديد ميعاد أو مناقشة مواضيع تتراوح بين مشاكل شخصية إلى وجهة نظر عامة في بعض القضايا الدولية، لا يعرف كلمة (لا) حتى مساعديه ومعاونيه قد وهبوا جل وقتهم لا ينتظرون أوامره في أمر يهم المنظمة أو يهمه، حتى ولو ضاقوا زرعاً من نفاذ صبره لأسئلتهم ومقترحاتهم وأبدوا انزعاجهم لذلك، فهم أيضاً لا يعرفون النطق بـ(لا).

في أمسيات الأحد، مرة على الأقل في الأسبوع كان يقف مخاطباً جمعاً من الزنوج ، بقدر عدد ما يتفوه به من الكلمات وبقدر عدد الإعلانات المنسوخة لجذب الانتباه والتي تروج للاستماع إليه عبر لقاءاته التي تقام بمرقص (أبودون) بهارليم غرب الشارع 166، بين (البرود وي) وشارع القديس (نيكولاس)، بالقرب من المركز المشيخى الطبي بالحي الكولمبي بنيويورك.

ولأسباب بدأ مالكولم في توجيه لفيف من الهجمات ضد (أليجاه محمد) متهمه بـ"الدجل الديني"، و "والانحطاط الخلقي"، الشيء الذي لم يبدرمنه من قبل، فقد زادت حدة غضبه بدنو انتهاء المهلة التي أقرتها المحكمة بإخلاء المنزل، والأخت (بيتي) حاملٌ من جديد "المنزل هو الشيء الوحيد الذي أعطيته لبيتي منذ زواجنا، يريدون أن يأخذوا المنزل ، أسمعني : لا أستطيع الاستمرار في حرمانها ومعاناتها، فقط لأنها تحملتني كزوج ، كم أحب هذه المرأة".

تواترت سلسلة التهديدات بالموت المجهولة عبر تلفونات البوليس وعدد من الصحف ولمكتب (او. أيه. أيه.يو) ولمنزل الأسرة في (المهيرست). وعندما ذهب مالكولم إلى المحكمة مدافعاً عن المنزل، كان محروساً بثمانية من رجال منظمته وعشرين من رجال الشرطة في زيهم الرسمي واثني عشر من المخبرين في زيهم العادي. فقررت المحكمة أن أمرها الصادر بالإخلاء (سيظل ساري المفعول). وعندما وصل للمنزل في (لونق إيلاند) هاتفه أحد أتباعه هناك، فرد عليه بدلاً عنه عامل تلفونات الشركة والذي أخبره أن التلفون (و. ل .1. 6320) موقوف من الخدمة، فتسابق أتباعه لشحن عربة إلى هناك، فوجدوا مالكولم إكس وزوجته آمنين.

وأسفرت التحقيقات التي أجرتها الشركة أن سيدة تدعى (سمول)، اتصلت وطلبت إيقاف خدمة هذا الرقم بسبب العطلة. فقفل فريق (أو. أيه. أيه. يو) عائداً إلى هارليم، وقامت مواجهة عنيفة بينهم وبين اتباع (أليجاه محمد) أمام مطعم (المسلمين السود) في الشارع رقم 116 وشارع لينوكس.

أدت الحادثة إلى تدخل رجال الشرطة الذين هرعوا إلى موقع الحدث، حيث وجدوا بندقيتين في سيارة (او. أيه. أيه. يو) فتمت مصادرتهما واعتقال الرجال الست.

كان لمالكولم إكس موعد في بوسطن، فقام بإرسال مساعده لينوب عنه، فاحتجزت سيارته في طريق العودة إلى المطار في شرق بوسطن بواسطة سيارة أخرى، وحسب التقارير أن رجالاً مسلحين بمديات خرجوا من السيارة المُعترضة، فتصدت لهم قوات مالكولم إكس بعدة طلقات نارية، فتفرق المهاجمون.

اتهم مالكولم (جماعة المسلمين السود) بأنهم وراء كل التهديدات والهجمات السابقة "لا يوجد جماعة في الولايات المتحدة كلها قادرة على تنفيذ هذه التهديدات أكثر من جماعة المسلمين السود، لأنني علمتهم ذلك بنفسي".

وعندما سُئل لماذا هاجم المسلمين السود و(أليجاه محمد) لما اتجهت الأمور نحو الاستقرار؟، رد قائلاً "لو تركوني لحالي لما قلت ما قلته".

وأخذ لنفسه صورة في منزله يحمل بندقية قصيرة وصناديق ذخيرة وذكر أنه مستعد لمواجهة أي محاولة لاغتياله "علمت زوجتي كيف تستخدمها وأمرتها بأن تطلق النار على أي كائن كان، أبيض أم أسود أم أصفر يحاول أن يقتحم الدار".

ذهبت إلى مدينة نيويورك في شهر ديسمبر ليقرأ مالكولم إكس الاضافات النهائية للمخطوطة واستيعاب التطورات الجديدة. وقد كان واثقاً من نفسه كما تجلى لي أكثر من أي وقت مضى، ظل يردد أن الصحافة قد استخفت بأقواله حيال التهديدات التي استهدفت حياته. ثم أحضر لي للمرة الثانية (الستردى كينق بوست)، وعلق على المقال الافتتاحي "إن المرء لا يستطيع أن يثق في الناشرين، لا أهتم بما يقولونه لك". أرسل إلىّ وكيل الكتاب في حجرتي بالفندق عقداً يتعامل مع حقوق الطبع الأجنبية والتي تحتاج إلى توقيع مالكولم إكس وتوقيعي الشخصي، فوقعت بحضوره وسلمته القلم، فنظر بشك إلى العقد وقال " الأفضل أن أستشير محاميَ الخاص ، " ثم وضع العقد في جيب سترته.

ونحن في سيارته بعد ساعة من ذلك توقف فجأة في الشارع 135 بمبنى (أيه. سي. أم. وأي) بهارليم، ثم سحب العقد ووقعه ، ودفعه إلىّ قائلاً "سوف أثق فيك" ، قال ذلك ثم واصل سيره.

عند اقتراب عيد الميلاد كنت متحمساً لشراء دميتين كبيرتين لإبنتي مالكولم لونهما بنى ، وعندما زارني بفندق (ويلنجتون) بادرته قائلاً " أحمل هديتين لابنتيك (عطا الله) و(قبلة) بمناسبة عيد الكريسماس" ، فبهت عند رؤيتهما وارتسمت على وجه ابتسامة عريضة "حسناً، ماذا تعرف عن من هذه الأمور ؟عفوا أقصد كيف تجرى مثل هذه الأمور؟" .ثم قام بفحصهما متأثراً "لا أفخر بما أقوله ،لم أهدى لأطفالي شئياً في حياتي ، وكل ما بحوزتهم من لعب إما هدية من أمهم أو أى شخص آخر،أعترف بخطئي ، ولكني مشغول" .

في أوائل شهر يناير سافرت من شمال ولاية نيويورك لمطار كنيدي الجوى وهناك هاتفت مالكولم بمنزله، وأخبرته بعزمي للسفر إلى (كنساس) لأشهد أداء القسم الذي سيؤديه شقيقي الأصغر (جورج) والذي تم اختياره مؤخراً عضوا في مجلس الولاية ،فهتف قائلاً "أنقل لأخيك منى أن يذكرونا في أبراجهم العالية ،فليذكر هو وغيره من الزنوج المعتدلين بأننا نحن المتطرفين من يسر لهم سبل الرفعة والسؤدد". قال لى ذلك عندما هاتفته مذكره بزمن عودتي إلى نيويورك.

وبالفعل عدت من تكساس وتقابلنا في مطار كنيدي،وكان مشغولاً،فأخبرني بضيق وقته بسبب اللقاءات التي ارتبط بها،فقمت بإرجاء عودتي إلى شمال ولاية نيويورك ، فركبنا إلى موقف للسيارات ،فحدثني عن الضغوط التى تساوره أينما ذهب،لا يقبل الناس منه الجديد ولا يذكرونه إلا في صورة الحقد والعنف القديمة،تمقته

المنظمات المعتدلة للحقوق المدنية لكونه (متطرفاً في النضال)،كما تمقته المنظمات المناضلة لكونه (متطرفاً في الإعتدال)، لم يفسحوا لى مجالاً لبلورة القادم من فكري الجديد، لقد حار بي الدليل. وفي لحظة من صفاءٍ وحبور تحدثنا عن طفله القادم وعن بناته الأربع ، فعلق ضاحكاً "سيكون القادم ذكراً، فإن لم يكن فالذي يليه بإذن الله". وعند دنوا الرحيل بلغته أن يرسل تحياتي إلى الأخت (بيتي) ، فتصافحناوقام بإخراج سيارته من موقفها،ثم ودعته وهو يرحل بعيداً ولم أكن أعرف أنه الوداع الأخير.

في 19يناير ظهر في تلفزيون(بيري بيرتون) بكندا وأجاب على سؤال عن التكامل والزواج اللحمي للأغارب قائلاً " في البدء أعترف بانسانية أي فرد أياً كان لونه أبيض أم أسود أم أحمر ،وعندما تذكر الإنسانية بمفهومها الشامل حتماً لن يطرح السؤال عن زواج الأغارب لأنه يعني زواج إنسان بآخر أو تعايش إنسان وآخر ،ولكن ما أشدد القول عليه هو ألا يقع وزر كل ذلك على الرجل الأسود، يجب أن لا يحمل الأسود وحده حكم ما يقتضيه الدفاع عن أى موقف من مواقف هذه الظاهرة ،وذلك لأن المجتمع الأبيض من ابتدر العداء للتكامل العرقي والزواج اللحمي للأغارب وكل ما من شأنه أن يعزز الوحدة والسلام ، وبصفتي رجل أسود أو فلنقل أسود أمريكي فإن كل ما بدر مني من مواقف حيال هذا الأمر لا أرغب في الدفاع عنها اليوم لأن أصداءها ما زالت ترن في المجتمع الأبيض رغم أن تلك الأصداء مبعوثة من نفس المجتمع،عليه أن نحاسب المجتمع الجاني سنُحجر الأصداء كي لا تنتشر ، لأنها لم تصدر إلا من أناس في حقيقة أمرهم ضحايا المجتمع السالب".

مستشهداً بهذا الموقف، يحق لى القول أن مالكولم قبل موته بشهر واحد تراجع عن مواقفه عن الزواج اللحمي للأغارب إلى حد اعتباره ببساطة شديدة (مسألة شخصية) ليس إلا.

في يوم 28 يناير كان على متن الرحلة رقم (9) للخطوط الجوية للـ(تي.دبليو.إيه) المتجهة من نيويورك والتى حطت بـمطار (لوس انجلوس) في تمام الثالثة مساءً ،وبشهادة فريق من الاستخبارات البوليسية قام الصديقان (إدوار باردلي) و (الن جمال) باصطحاب مالكولم إلى فندق (هيلتون استانلر) فنزل بالغرفة رقم (1129).، وعلى حسب رواية باردلي " عندما دخلنا ردهة الفندق كان في أثرنا ست رجال من المسلمين السود ،عندما نزل مالكولم إلى الردهة من جديد اصطدم بالمسلمين، فاندهشوا لذلك، وانتبه لهم ولكنه لم يغير طريقة مشيته ، فقد كنا نواجه مشكلة فعلية " . قام مالكلوم واصدقائه باصطحاب سكرتيرتين سابقتين لاليجاه محمد واللتين رفعتا قضيـــــة (أبـــــوة) ضده بمكتب وكيل النيابة بلوس أنجلوس (قلاديس

رووت)، والذى أفاد بأن مالكولم حرر عدة تُهم تطعن في سلوكيات اليجاه محمد مع عدد من السكرتيرات السابقات.

بعد وجبة العشاء قام صديقاه بإعادته إلى الفندق، فاسترسل باردلي قائلاً "كان المسلمون السود منشرتين في كل أرجاء المكان مطوقين الفندق ،فقفز مالكولم خارج السيارة وجرى نحو الفندق بينما وقفت لتغطيته، فدخل حجرته ولم يبرحها على طول فترة بقائه بلوس أنجلوس. وبعد ذلك وفي طريقنا إلى المطار كانت تتبعنا سيارة،فاجتهدنا لبلوغ الطريق العام ،فبرزت سيارتان للمسلمين السود تندفعان خلفنا جنباً إلى جنب،فالتقط مالكولم عصاتي وأخرجها عبر النافذة الخلفية في اتجاه السيارتين فبدت كالبندقية مما أدى إلى تباطؤ السيارتين ،فزدنا السرعة نحو المطار ثم إلى المحطة حيث كان رجال الشرطة في انتظارنا ،فقاموا باصطحاب مالكولم إلى الطائرة عبر ممر أرضى،فشيعته حتى أقلعت الطائرة".

كانت شرطة شيكاغو أيضاً في الانتظار عندما حطت الطائرة بمطار (أوهير) في الساعة الثامنة مساءً فرافقوه حتى فندق (برستول)،وكان الجناح المجاور له أيضاً يشغله رجال الشرطة الذين كانوا بحراسته لمدة ثلاثة أيام بمدينة شيكاغو ،وهنالك أدلى بأقواله بمكتب وكيل النيابة ب(لينويس) والذى استوجب قبل ذلك (أمة الاسلام).

في يوم آخر ظهر على شاشة التلفاز برنامج (ايرف كبسينت)، فذكر محاولات الاغتيال التى تعرض لها مؤكداً على احتفاظه بمستند يحوي أسماء المكلفين بقتله،وعندما عاد إلى الفندق برفقة رجال الشرطة ،كان هنالك ما يقارب الخمسة عشر زنجياً يتسكعون حول المكان بوجوههم الكاحلة على حسب رواية مالكولم للمخبر السري الرقيب (ادوارد) جميعهم من أمة الاسلام،إثنان فقط على الأقل من نيويورك ،"يبدو أن اليجاه يترصد بي الدوائر،أعرف الكثير عن المسلمين ولكن تهديداتهم هذه لن تثنيني عن ماعزمت عليه ".

بعد تلك الليلة التي قضاها في الفندق،اصطحبه رجل الشرطة إلى مطار (أوهير) ومن هناك عاد بأدارجه إلى مطار كنيدي بمدينة نيويورك.

وفوق كل هذه الضغوط كان ملزماً بتنفيذ القرار القاضي باخلاء منزل (المهيرست)، فاتصل بي وعبر صوته المجهد أخبرني عن الاستئناف الذي تقدم به للمحكمة وعن عزمه للسفر في اليوم التالي إلى كل من الاباما و انجلترا وفرنسا بعد ذلك وفقاً لبرنامج معد لإلقاء عدة خطب هناك،وبعد عودته مباشرة سوف يذهب إلى جاكسون والمسيسيبي لمخاطبة (الحزب الديمقراطي لحرية المسيسبي) في التاسع عشر من فبراير. ثم شكى إلىّ بعد ذلك وكانت المرة الأولى التي يقر فيها بآلامه "أخي

هالى وهنت أعصابي وفتر عقلي" ،ثم استأذنني في قضاء يومين أو ثلاثة أيام معى إثر عودته من المسيسبي لأنه يود قراءة المخطوطة من جديد " لقد قلت أن مدينتكم ساحرة ،فقط يومان من أجل الراحة والأمان وهذا كل ما أحتاج إليه "، فرحبت بالفكرة ونصحته عند الزيارة أن لا يرهق نفسه بقراءة الكتاب مجدداً، فلقد اتفقنا فيما مضى على إجراء بعض التعديلات الطفيفة عليه عندما قام بقراءته مؤخراً ،" فقط أعطنى فرصة أخرى لقراءته لأنني لا أحسب أن أحيا حتى أقرأه في شكله النهائي" وعلى ضوء ذلك أجريت اتفاقاً مبدئياً على أنه في اليوم التالى لعودته من المسيسبي سوف يوافيني بشمال ولاية نيويورك لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في يومي السبت والأحد الموافقان 20 ،21 من شهر فبراير .

كتبت مجلة (جيت) عن رحلته إلى كل من (سلما) و (الاباما) بدعوة من عضوين بالـ(لجنة التنسيقية لمكافحة العنف الطالبي) ،وقد كان الدكتور مارتن لوثر كينق حينذاك مودعاً في سجن (سلما) ،فأحدثت زيارة مالكولم قلقاً متزايداً في أوساط تنظيمه (المؤتمر المسيحي لقيادة الجنوب) .فتسابق اثنان من الأعضاء للقائه بالمطار وهما المبجل (أندرويونق) والمبجل (جيمس بيقل) ، فناشداه أن يكف عن التحريض وإثارة العنف والشغب، "فاستمع وابتسم" حسب ما روته السيدة (فاى بيلامي) سكرتيرة الـ (إس.إن – سي .سي) والتى رافقته إلى أحد كنائس الزنوج لمخاطبة جمع غفير هناك،فعاجلها قائلاً تذكرى " لا يملى على أحد ما أقوله ،ففي خلال أسبوعين ستبدأ حملتى التجنيدية لجنوب البلاد لمنظمة الـ(أو .إيه – إيه – يو) والتى تنطلق من هارليم".

في الكنيسة جلس بجوار زوجة مارتن لوثر فهمس إليها حسب ما ورد في روايتها لمجلة (جيت) "أريد أن أقدم مساعدتي ،أريد البيض وهم يستمعون إلىّ أن أُمثّل لهم الخيارالصعب الذي لا مفر منه إذا ما توانوا في رفض الخيار السهل وصاحبه مارتن لوثر " . لم أفهمه في البداية فقد كان شديد الحرص لأن يدرك مارتن لوثر بأنه لم يأتِ لإثارة الفتن وتعقيد الأمور "فقط أريد أن أساعد" ..... ثم أخذ يردد هذه المقولة في وفاء وإخلاص ".

وفي اللقاء الحاشد خطب قائلاً "لا أدافع عن العنف ولكن إذا وطأ أحدهم قدمي فسوف أرد له الصاع صاعين ..فليفرح البيض بما يحشده مارتن من حشود وإلا فسوف يغتنم الفرصة آخرون من ذوي العزم والقوى إذا ما فشل مارتن ".

وما إن عاد إلى نيويورك حتى سافر عاجلاً إلى فرنسا ،وكان من المقرر له هناك مخاطبة (مؤتمر الطلاب الأفريقيين) ولكنه منع رسمياً من ذلك وحظر نهائياً من البلاد الفرنسية وإلى الأبد كشخص (غير مرغوب فيه) ،فطلب منه الرحيل

،فغادر البلاد غاضباً إلى لندن ،فاستضافه المراسلون الصحفيون لهيئة الإذاعة البريطانية في جولة من المقابلات بمدينة (اسميذويك) ذات الكثافة العالية من السكان الملونين،فواجهت إذاعة الـ(بي.بي.سي) عاصفة من الانتقادات من قبل المواطنين واتهمت بالتواطؤ في إذكاء الروح العنصرية في بلد يزحمه التوتر وعُرضة للإنفجار .وفي إطار هذه الزيارة تحدث مالكولم أيضاً في مدرسة لندن للعلوم الإقتصادية.

ثم عاد إلى نيويورك في يوم السبت الموافق 13 فبراير ، وعلى حسب رواية الأخت (بيتي) استيقظت الأسرة في تمام الساعة الثالثة والربع في فجر يوم الأحد التالى على دوى إنفجار مرعب ،وفي زخم الهلع وصراخ الأطفال المرعوبين وفي لمح البصر نجح مالكولم في النفاذ بأُسرته إلى بر الأمان عبر البوابة الخلفية المفضية إلى الفناء،حيث نجح احدهم فى إلقاء قنابل الجازولين والكوكتيل عبر النافذة الأمامية ، فاشتعل المنزل واستنفد رجال الإطفاء ساعة بالتمام في احتواء النار التى التهمت نصف المنزل ،ولا تملك الأسرة تأميناً ضد الحريق .وعلى أثر ذلك انتقلت الأخت بيتي المفجوعة الحُبلى وبناتها الأربع الصغار إلى منزل أحد الأصدقاء المقربين،بينما استجمع مالكولم قواه وطار في صبيحة نفس اليوم إلى مدينة ديترويت وفق برنامج معد ،وكان مرتدياً تحت بدلته سترة مفتوحة العنق ،ثم عاد بعد ذلك إلى نيويورك، وفي غمره هواجسه لإعادة المسكن الآمن له ولأسرته ثارت ثائرته عندما نما إلى سمعيه أن (جيمس أكس) وزير مسجد اليجاه محمد رقم (7) نيويورك قد حدث الصحافة أن مالكولم أكس من فجر المنزل سعياً للدعاية والشهرة.

في أمسية الاثنين تحدث في مرقص أوبودون المألوف ،ولم يكن كعهدهم به،مالكولم ذو العزم الحديدي والذى لا تنكسر شوكته إذا وقف خطيباً، ولكن دون ذلك إنهارت قواه عندما خاطب خمسمائة أو يزيدون قائلاً "لقد أفرغت مافي جعبتي وشارفت الختام ، لا أخاف على نفسي إن لم يلحقوا الأذى بأسرتي" ،ثم هتف للملأ "أنهم المسلمون من فجَّر منزلي " ، ثم لمَّح بالقصاص " فليعلم الصائدون أن الغاب ملئ بمن يرغب في صيدهم ". وفي يوم الثلاثاء الموافق 16 فبراير هاتفني وتحدث موجزاً أن التعقيدات التى صاحبت تفجير منزلهم أرهقت مساعيه حتى أصبح عاجزاً تماماً عن زيارتي في عطلة نهاية الأسبوع كما وعدني من قبل. كما قرر تأجيل زيارته الموعودة إلى جاكسون والمسيسيبي لإنجاز أحد مواعيده العاجلة،قال ذلك ثم قفل الخط . فحدثني أحد المقربين بما قرأته بعد ذلك عن قوله " أنا مستهدف لأموت خلال الخمسة أيام القادمة ، لدى أسماء خمسة من عناصر المسلمين السود المكلفين بقتلي ، وسوف أفصح عنهم". كما أبدى عن رغبته لأحد الأصدقاء في حيازة مسدس وذلك بعد استئذان السلطات " أشك في أنهم سيوافقون بحجة أنني متردي سجون"

في يوم الخميس صرح لأحد المراسلين في حوار لم ير النور إلا بعد موته"الآن لا أستطيع أن أبت في أمر فلسفتي واعتقادي ولكن خلاصة القول : " أنا رجل متساهل".

في مقر مكتب الـ(أو . أيه .أيه.يو) برزت سبورة سوداء تعلن عن لقاء في يوم الخميس الموافق 18فبراير في تمام الساعة العاشرة والنصف مساءً سيتحدث فيه مالكولم بمحطة الـ(دبليو.أى.إن.إس). وفي وقت سابق لذلك كان قد اتفق مع تاجر العقارات على شراء منزل آخر .في يوم الجمعة كان له موعد مع (جوردن باركسى) الكاتب والمصور في مجلة (الحياة) والذى أصبح محط إعجابه واحترامه " ياله من هادئ ومتألق كلما ظهر بقبعة الفراء والوبر" .وعلى خلفية هذا الموعد علق بارك بعد ذلك في المجلة قائلاً (هجره كثير من جفائه وعدائه القديمين ولكن لم يهجر حماسه وثقته في النفس).وفي حديثه عن تجربته القديمة مع مسجد المسلمين رقم (7) ذكر قائلاً " كانت تلك الأيام سفراً من الصفحات الزائفة ملؤها السقم والجنون ، و أنا سعيد لفراقها الآن ، فقد حان زمن الشهداء ولو قُدِّر لى أن أكون منهم ،فذلك من أجل أن ترسوا دعائم الأخوة والتراحم ،وهذا ماتبقى لإنقاذ هذه الاوطان ،أعلم أن الدرب شاق وطويل ولكني أعلم ذلك .....".

ثم سأله بارك عن صحة ما يقال أن القتلة يتربصون به الدوائر " هذا صحيح مثل صحة وقوفك بجانبي الآن ،وقد حاولوا ذلك مرتين خلال الأسبوعين المنصرمين" .ثم سأله بارك عن موقف الشرطة فرد ضاحكاً "أخي العزيز لا يستطيع أحد أن يحميك من المسلم إلا مسلم مثله ،أو أى شخص آخر خبر فنونهم القتالية وأنا من أبتدع العديد من هذه الفنون" .

وفي استرجاعه لحادثة الفتاة الجامعية البيضاء التى حضرت إلى مطعم المسلمين السود واستفسرت عن (واجبها) نحو قضية الزنوج فرُدت خائبة والدموع على عينيها ،اعترف مالكولم لجوردن بارك " كم أنا نادم على ذلك الموقف ،ففي كثير من أرجاء القاره الإفريقية رأيت كثيراً من البيض يمدون يد العون لإخوتهم السود ،شئ مثل هذا يغلق للجدل أبواباً . نعم ارتكبت كثيراً من الأخطاء باسم الإسلام والتى أأسف لها الآن ،لقد كنت عربيداً حائراً، ومثل سائر المسلمين (نُوّمت مغنطيسياً) واختاروا لى طريقاً، ثم أمرت، فمشيت. فمن جعل نفسه مسخرة الآخرين ،عليه أن يدفع الثمن وكلفني ذلك اثنتى عشرة سنة من عمري".

في صبيحة يوم السبت ذهب مع زوجته بيتي لرؤية تاجر العقارات ،وقد كان المنزل الذي عرض عليهم يقع في حي غالبيته من اليهود، وهو أيضاً في (لونق إيلاند)، قُدر ثمنه بحوالى ثلاثة آلاف دولار ،ونال المنزل إعجاب مالكولم شخصياً، كما أبدت

(بيتي) موافقتها بالعرض.وفي طريقها إلى منزل صديقهم حيث تقيم مؤقتا هي وطفلاتها، قررا احتياجهما إلى مبلغ ألف دولار آخر لتغطية نفقات الرحيل ، فمكث مع زوجته بالمنزل حتى منتصف النهارمعتذراً عما سببه لها من إجهاد مضنى وطويل .وعندما ارتدى قبعته وهم على الانصراف إلى (مانهاتن) ،همس إليها عند مدخل الرواق، "سوف لن نفترق أبداً،أحب أن أراكم دائماً بقربي ، لن أقدم على سفر بعيد إلا وأنت معي ، سنتدبر أمر من يعتني بأطفالنا ،لن أهجرك بعد الآن" ، (ولم يسعني إلا وأن ابتسمت) كما روت بيتى .

كانت بيتي تعتقد أن زوجها ذهب قريباً ليتصل من إحدى كابينات التلفون من إحدى مستودعات الأدوية ،عندما فاجأتها بعد ذلك أنه اتصل بي في حوالي الثالثة والنصف في ظهيرة ذلك اليوم.

كانت المرة الأولى خلال سنتين أعجز عن تمييز صوته، حيث بدا صوته عبر الهاتف كمن يصاب بزكام ثقيل ، فأخبرني كيف استطاع وأصدقاءه وآخرين من معارفه من إنقاذ ما تبقي من أمتعة ومقتنيات المنزل في منتصف الليل قبل أن يأتي جماعة الإخلاء لإلقائها خارج المنزل على الطريق، "أنا وبيتي سررنا بالمنزل الذي نود شراءه"، ثم ضحك ضحكة مكتومة وقال "كما تعلم لا يوجد أحد يوافق أن يستأجرني منزله، ولا أستطيع فعل ذلك هذه الأيام ،فكل ما أملكه حوالي مائة وخمسين دولار، كما أنني في حوجة ماسة لدفع مبلغ ثلاثة آلاف دولار مضافاً اليها مبلغ عشرة الآلف دولار عبارة عن نفقات الرحيل" . فسألني بعد ذلك عن إمكانية دفع مبلغ أربعة آلاف دولار مقدماً من الربح المتوقع للكتاب، فأرجأته لصبيحة يوم الأثنين حتى أهاتف الوكيل الذي سيقوم بدوره باستفسار الناشر بإمكانية تدبير المبلغ. وبالفعل اتصلت به في أمسية الاثنين وأخبرته، فذكر لي أنهم رغم تكلفة المنزل الذي سيقيهم شر المشاكل قد اتفقوا مع شقيقته (إلا) والتي تسكن في مدينة بوسطن بأن يسجل المنزل باسمها، فهو مازال مدينا لشقيقته بمبلغ (ألف وخمسمائة دولار) أُستُنفدت لتغطية نفقات أسفاره الخارجية السابقة ، بيد أن هنالك احتمالاً آخر بتسجيل المنزل باسم الأخت (بيتي)، أو باسم ابنتهم الكبرى (عطا الله). ثم استطرد في ذكر المخاطر التي واجهته "أود أن أصارحك لست واثقاً تماماً من تورط المسلمين في ما حدث لي مؤخراً، أعلم بما يستطيعون فعله ومالا يستطيعون، فهم لا يستطيعون فعل بعض الأشياء التي تجرى الأن، فكلما فكرت فيما حدث لي في فرنسا أغض الطرف عن اتهام المسلمين، ويبدو لي ذلك شيئاً شاذاً ، ثم فجأة غير الموضوع "كما تعلم أنا سعيد لكوني أول من أسس علاقات رسمية بين الأفارقة الأمريكيين وإخواننا في الدم بالقارة الإفريقية ". ثم ودعني بعد ذلك وقفل الخط.

بعد تلك المحادثة التلفونية توجه مالكولم اكس الي (مانهاتان) ثم إلي فندق هيلتون بنيويورك ، وقام بإدخال سيارته الزرقاء في جراج الفندق، وبعد ذلك حجز حجرة بالطابق الثاني عشر اصطحبه إليها رجل الخدمات. وبعد برهة دخل بعض الزنوج الفندق وسألوا رجال الخدمات عن الغرفة التي يشغلها ، وبالطبع لم يجيب رجال خدمات الغرف عن أي استفسارات تخص النزلاء فقد كانوا مدركين أن ضيفهم مالكولم وعلى ذكر كثير من صحف نيويورك قد تعرض لعدة تهديدات بالقتل ،فقام رجل الخدمة بتبليغ رئيس أمن الفندق ،ومنذ ذلك الحين وحتى مغادرة مالكولم في اليوم التالي أقيمت حراسة مشددة حول طابقه ، خلال تلك الفترة غادر حجرته مرة واحدة فقط لتناول الغداء في رواق الفندق.

في صبيحة يوم الأحد وفي تمام الساعة التاسعة تفاجأت الأخت (بيتي) في (لونق ايلاند) عندما هاتفها زوجها سائلاً ما إذا كانت قد غادرت المنزل، فمن الخطورة أن تحضر مع الأطفال اجتماع الساعة الثانية ظهراً بمرقص (أودوبون) بهارليم، فردت بالنفي ثم كرر نفس السؤال في يوم السبت محذراً إياها بعدم حضور الإجتماع "أنتِ لا تعلمين ما حدث لي قبل ساعة، ففي خلال الساعة الثامنة بالتمام أيقظني صوت رجل في التلفون مهدداً ثم قفل السماعة". قال مالكولم ذلك وودع زوجته وقفل الخط.

وبعد أربع ساعات غادر غرفته بالفندق ونزل بالمصعد إلي الرواق ثم خرج بسيارته وذلك في منتصف يوم الأحد الموافق (21) فبراير متجهاً إلي مرقص (أودبون) الذى يقع بين (برود-وي) وشارع القديس نيكولاس وهو عبارة عن (مبنيين) يتم إيجاره بطريقة متكررة لحفلات الرقص واجتماعات المنظمات ولأغراض أخرى.

شابة رقيقة حسناء سوداء اللون تعمل كموظفة استقبال وكمساعد نشيط لمالكولم اكس في منظمة الـ (يو-إيه-إيه-أو) أخبرتني أنها حضرت في وقت مبكر في الساعة الواحدة والنصف ظهراً تمهيداً للقاء، فلاحظت أن الأربعمائة مقعد الخشبي في مكانهما الطبيعي والممشيين بطرفه، ولكن الممشى الرئيسي لم يكن موجوداً ، وكما لاحظت الفتاة الشابة (والتي أرادت أن لا يذكر اسمها) خلقاً كثيراً جالساً في الصفوف الأمامية، فلم تعر ذلك انتباهاً طالما كثير منهم اعتاد الحضور في زمن مبكر لكي يظفر بمقعد قريب من خشبة المسرح للاستمتاع لأقصى حد بالخطيب الدرامي مالكولم اكس. في المسرح خلف موقع الخطيب كانت هناك ثمانية مقاعد بنية اللون مصطفة وخلفها مباشرة صورة جدارية زيتية ملونة لمشهد ريفي، وكانت مسؤولية الشابة الحسناء تكمن في عملية التنظيم والتنسيق . وفقاً للبرنامج المعد سيتحدث الأب الموقر(ميلتون قالاميسون) من كنيسة (بروكلين المشيخية) ذلك المناضل الذي قاد في عام 1964م مقاطعة (اليوم المزدوج) الزنجية بالمدارس العامة لمدينة نيويورك احتجاجاً على

قصور التكافؤ العنصري ،كما قامت الشابة بالتنسيق مع بعض الشخصيات الاعتبارية لمناشدة الحضور بالتبرع بأقصى ما يمكنهم به وذلك لدعم الجهود التي يقوم بها مالكولم اكس ومنظمته.

في البوابة لم يتم تفتيش الأشخاص الذين دخلوا المرقص،ففي الأسابيع الأخيرة أصبح مالكولم شديد المعارضة لذلك "هذا يشعر الناس بعدم الارتياح ويذكرني بقول أليجاه محمد : إن لم أجد الأمان بين بني جنسي فأين أجده" ، وفي هذا اليوم منع أيضاً صحافة البيض والسود معاً، فقد كان غاضباً مما وصفها بالصحافة (المحابية)، وذلك لأن الصحافة لم تحمل تصريحاته بخصوص ما يواجهه من مخاطر شخصية محمل الجد، حيث اعترف المراسل الصحفي للـ (يونايتد برس انترناشونال) (ستانلر سكوت) وهو من الزنوج، اعترف أن مالكولم اعترضه قائلاً "كزنجي مسموح لك بالدخول ، أما كمواطن فإن أردت أنت ذلك ولكن شريطة أن تتخلى عن الشارة الصحفية" , كما نطق بنفس الحكم لرجل الأخبار (هوق سيمبثون) من (ايه-سي-ام-دبليو) حيث حضر هو و(اسكوت) في وقت مبكر حتى يفوزوا بمقعدين قريبين من المسرح.

دخل مالكولم المرقص قبل ساعتين بخطوات متثاقلة ،كما حدثتني مساعدته الشابة:- "وفي غضون ذلك كان عدد كبير من مساعديه يخرجون ويدخلون من الردهة الصغيرة على طول خشبة المسرح. جلس بعيداً وكانت رجلاه الطويلتان ممتدتين ، وكان أمام مرآة واهية يستعملها الفنان أو المضيف عندما يقام الرقص متكئاً بأحدي مرفقيه في منضدة أمامه، كان يرتدي بذة سوداء تحتها قميص أبيض، وقال لمجموعة صغيرة من مساعديه أن لن يتحدث عن مشاكله الشخصية لكي لا يكون ذلك سبباً لحضور كل من يريد أن يسمعه، وأنه كان متسرعاً في اتهام المسلمين السود بتفجير منزله فإن ذلك أكبر مما اعتادوا على فعله، فهو يعرف ما يستطيعون فعله، ولكن جرت الأمور أخطر من ذلك، وكان الحضور وهم جالسون بالردهة يستطيعون سماع أصوات الحضور بالخارج. "لا أريد أن أحلق بعيداً بحديثي اليوم، سوف أزيل بعض هذا التوتر، أنه يجب على السود نبذ القتال فيما بينهم لأن ذلك جزء من المناورة الكبرى للرجل الأبيض، أن نظل نتقاتل". ثم ظل يحدق في ساعة معصمه متوقعاً وصول الموقر الأب (قالاميسون) وعلق قائلاً لمساعدته الشابة "عند تحديد موعد مع وزير أو ما شابه ذلك يجب على المرء أن يدعوهم قبل الموعد بساعتين أو ثلاث ساعات ،لأنهم سوف يغيرون مواعيدهم وهذا دأبهم".

"فشعرت أن ذلك خطئي" كما حدثتني المساعدة "لقد بدأ موعد انعقاد اللقاء أيضاً فالتفت إلي مساعده بنجامين وكان معروفاً بمقدراته العالية في الخطابة فاستأذنته أن يبدأ بالحديث ثم التفت إلي مالكولم قائلة : هل تجرى الأمور على نحو أفضل لو تحدث

"أعني بنجامين" و يقدمك أنت بعد ذلك؟ ، فقاطعني بحدة "كما تعلمين يجب أن لا تسأليني عن الصواب أمامه"، ثم تمالك نفسه سريعاً ووافق، فسأله بنجامين مستفسراً عن زمن الحديث، فرد محدقاً في ساعته للمرة الثانية "لمدة ساعة ونصف" . فذهب (بنجامين) عبر البوابة المؤدية إلي الخشبة ثم ما لبث أن خاطب الحضور مُحِضّهم على ماهو مطلوب من السود هنا في الولايات المتحدة.

لم يحضر الأب (قالاميسون) وصحبته في الساعة الثالثة وكان مالكلوم يائساً، فاشتكى لي متوجساً من عدم حضورهم، وبدا وكأن أحداً لا يهتم للأمر، فأحسست بخوف عليه، فقلت له "لا تقلق سيحضرون بإذن الله".

كما وعلى حسب قول مصدر آخر فإن (قالاميسون) لم يستطع الحضور لأنه اعتذر في وقت مبكر وقد أحيط مالكولم علماً بذلك قبل أن يتحدث في اللقاء.

فانقضت بعد ذلك مهلة (بنجامين) المعطاة للحديث وكان مالكولم ومساعدته الشابة يستمعان إليه "والآن وبدون تعليق ،أقدم لكم رجل يريد أن يحدثكم، رجل كرس حياته من أجلكم، ،أريد منكم أن تنصتوا وتفهموا رجلاً هو (تروجان) الأمة السوداء".

فدوي التصفيق في الردهة، فالتفت مالكولم إلي مساعدته الشابة "أرجو أن تعذريني لرفع صوتي عليك ، "أنني على بعد خطوات من النهاية" ، فقالت "أوه لا تذكر ذلك ، ثم قالت بسرعة "لقد فهمت" ، وقد كانت نبرة صوته عميقة حين رد قائلاً "أتسائل لو أن أي إنسان يفهم" ، ثم خطى نحو خشبة المسرح مبتسماً عبر التصفيق الحاد وهو منحنٍ للأخ (بنجامين) والذي مر به في طريقه إلى الردهة. كانت مساعدته الشابة تلتقط بعض أوراق العمل التي يجب أن تؤديها عندما دخل عليها بنجامين يتفصد عرقاً، فشدت على يديه قائلة "كان ذلك جيداً" . وعبر باب الردهة الذي كان مفتوحاً جزئياً استطاعت هي وبنجامين الاستماع إلي تخافت حدة التصفيق ثم تلاه بعد ذلك ترحيب التحية المألوفة "السلام عليكم إخواني وأخواتي"، "وعليكم السلام" ، رد عليه بعض الحضور. خلف ثمانية صفوف من المقاعد الأمامية حدثت جلبة ، وفي شجار فجائي ارتفع صوت رجل غامض "أخرج يدك من جيبي" ، فاستدار كل الحاضرين لمشاهدة الموقف، فقال مالكولم "رجاءاً، رجاءاً أرجو أن لا تنزعجوا)" ، ثم أردف بحدة "دعونا نسوي الأمر" ، بانتباهه المنصرف لم يلحظ مالكولم الرجال المسلحين.

ذكرت إحدى النساء اللواتي كُنّ بالقرب من الصف الأول قائلة "صرفتني الجلبة برهة من الزمن، ثم عدلت بناظري إلي مالكولم اكس في اللحظة التي ظهر فيها ثلاثة

رجال على الأقل في الصف الأمامي وهم واقفون ومصوبون أسلحتهم، ثم وبدأوا يطلقون النار في وقت واحد".

كثير من الناس ذكروا أنهم رأوا شخصين مندفعين نحو الخشبة، يحمل أحدهم بندقية والآخر مسدسين – كما ذكر المراسل الصحفي للـ(أي- بي- يو) استانلى اسكوت (دوي صوت الطلق الناري وتباري النساء والأطفال في الهروب والبحث عن غطاء ساتر، وتمددوا فوق الأرض وتحت المناضد).

ذكر المراسل الصحفي (هوق سيمبتون) لمحطة الراديو (أيه-سي-أم-دبليو) [وبعد ذلك تنامى إلى سمعي ذلك الصوت المكبوت، كان مالكولم اكس لا يزال يضرب بيديه ومازالتا مرفوعتين حتى سقط على المقاعد خلفه. كان الجميع يصرخون، رأيت رجلاً خلفي تماماً في اللحظة التي ارتطمت بها بالأرضية، وكان يطلق النار من تحت سترته وهو منسحب نحو الباب] .

الفتاة الشابة التي كانت في الردهة التي تقع خلف المسرح حدثتني قائلة "كانت الجَلَبة وكأن جيشاً بأكمله قد استولى على المكان، كنت أعرف أنني يجب أن لا أذهب ولكنى قصدت أن أراه ومازلت أذكر تلك اللحظات" .

ضم مالكولم اكس يديه إلى صدره عندما أصابته الست عشرة رصاصة الأولى من البنادق والمسدسات، وقد كان أصبعه الأوسط من يده اليسرى ممزقاً بالرصاص والدماء تنهمر من لحيته، قبض على صدره ثم سقط جسده الكبير فجأة إلى الخلف متهالكاً فوق مقعدين مرتطماً رأسه بأرضية المسرح.

في زخم الصراخ والعويل والجري تكالب بعضهم نحو خشبة المسرح، من بينهم كانت الأخت بيتي، نهضت من حيث ألقت بجثتها فوق أطفالها والذين تمادوا في الصياح، وجرت تصيح بطريقة هيسترية "زوجي-إنهم يقتلون زوجي" ، وقام أحد الصحفيين المجهولي الهوية بالتقاط عدة صور له ، بينما انحنى الناس على جسده المستلقي فوق خشبة المسرح، فانتزعوا جزءاً من قميصه، وحلوا رباط عنقه لتزويده بالتنفس الاصطناعي وتناوب على ذلك رجل وامرأة ، وذكرت المرأة التي عرفت نفسها كممرضة "لا أدري كيف وصلت الي المسرح، وكل ما أذكره أنني ألقيت بجسدي فوق من أعتقد أنه مالكولم، كنت أفديه بنفسي، رأيته مسجي على المسرح بعد توقف إطلاق النار، فحنوت عليه جاهدة لإسعافه ، ثم حضرت زوجته بيتى لتفعل نفس الشي، وارتدت إلي الخلف وجثت على ركبتيها شاخصة الي صندوق الذخيرة الجيبي الفارغ وهي تصرخ بألم من هول المفاجاءة (لقد قتلوه)".

كما ذكر متحدثٌ آخر(يدعى باترولمان توماس) كان حاضراً بمدخل المرقص "سمعت دوي الرصاص وهرعت الي الداخل ،فلمحت مالكولم مسجي على المسرح وآخرين يلاحقون رجلاً ما" ، وذكر أنه من قبض على ذلك المشتبه.

لويس ميشاو صاحب مكتبة (الناشونليست ميموريال) بالشارع السابع بهارليم ذكر أنه وبناءً على دعوة من مالكولم حضر متأخراً للقاء، وصادف عدداً كبيراً من الناس وهم يندفعون للخارج.

كان العريفان (آلفين آرونوف) و(باترولمان لويس) على متن سيارتهما في جولة ليلية حتى تناهى إلي سمعيهما صوت طلقات نارية. قال آرنوف "عندما وصلنا الي هناك كانت الجماهير تندفع إلي الخارج "أصيب مالكولم- أصيب مالكولم" ، "لا تدعوه يهرب". وفي التو استطاع رجلا الشرطة القبض على الزنجي الذي تناولته الأرجل بالركل عندما حاول الهروب ، ثم أطلق رجلا الشرطة عدة طلقات نارية في الهواء لتشتيت الغاضبين من حوله وهم يدفعون الجاني إلي السيارة وانطلقوا مسرعين به.

هرع أحد الحاضرين إلي قسم الحوادث بمستشفي كولمبيا المشيخي، وأحضر معه حمالة من القماش إلي المرقص ووضع فوقها مالكولم، حيث قام مصور مجهول الهوية بالتقاط صورة جنائزية مروعة، ظهر فيها بفم فاغر وأسنان كاشفة بينما كان أشخاص يدلفون به إلى مدخل قسم الحوادث بالمستشفي . ذكر ناطق بالمستشفي لاحقاً أن الساعة كانت تمام الثالثة والربع مساءً عندما أُدخل مالكولم إلي حجرة العمليات بالطابق الثالث، وكان ميتاً أو يحتضر.

قام فريق من الجراحة بمحاولة يائسة بشق فتحة في الصدر وتدليك قلبه ولكن توقفت جهودهم في تمام الساعة الثالثة والنصف في ذات المساء.

انهمرت أسئلة المراسلين الصحفيين الذين تقاطروا على الناطق باسم المستشفي بمكتبه في الأسفل، فرفض الإدلاء وركب المصعد إلى غرفة العمليات. رافق الأخت بيتي نفر قليل من أصدقائها إلى مكتب المستشفي في اللحظة التي عاد فيها الناطق من غرفة العمليات ليدلى بالتصريح التالي "أن السيد المعروف بمالكولم أكس قد لقى حتفه متأثراً بجراحه من جراء عدة طلقات نارية، ويبدو أن الفقيد لقى حتفه قبل الوصول إلي المستشفي، فقد أصيب في صدره عدة مرات باستثناء إصابة واحدة في خده".

وعلى ضوء ذلك افرنقع الحضور كل تغالبه المشاعر الآسية وهم يعزون بعضهم البعض، و النساء كن الأكثر حزناً و بكاءً .

وما أن انتشر خبر موته في سماء هارليم وأرجاء المعمورة حتى بدأ الازدحام خارج فندق ثيريذا حيث المقر الرئيسي للـ (يو-أيه-أيه-أو) ، فقد علموا من المذياع أن الرجل الذي اعتقل في موقع الحدث عرف نفسه في البدء بإسم (توماس هافان) (والذى عرّف نفسه لاحقاً بأسم تالمدش هير) ، حيث وجد رجال الشرطة فى جيبه الأيمن خمس وأربعين قطعة خرطوش باستثناء أربعة من بينها لم يتم استخدامها.

وبعد ذلك في المستشفي اليهودي التذكاري ذكر الأطباء أن هير قد أصيب بطلق ناري في فخذه الأيمن وتلقي عدة ضربات في جسمه، تكدمت من جرائها جبهته. على حد قول العريف ارنوف لو لم يسرعوا لنجدته لظل الموجودون بالمرقص يركلونه حتى الموت.

ثم نُقل هير لمستشفي سجن (بليوقيوا) في الساعة الخامسة مساءً. تفرق المتجمهرون من أمام فندق (ثيريذا) بهدوء وحذر، وكإجراء احترازي صدرت الأوامر من الكابتن (سيلي) قائد الوحدة الإدارية رقم (58) لشرطة مدينة نيويورك ، علماً بأنه الزنجي الأول في نيويورك يتولى مثل هذه المهام، حيث أمر بقفل مسجد المسلمين رقم (7) والمطعم بناصيته بشارع (لينوكسي) الرئيسي والشارع رقم 116.

وعندما هاتف المراسلون الصحفيون مطعم (المسلمين السود) رد عليهم رجل قائلاً "لا يوجد من يرد على أسئلتكم هنا"، وعندما أعادوا الكرة مع (يو. ايه.أيه .أو) استمر التلفون في الرنين من غير رد.

ثم ظهر قائد القسم الإداري (سيلي) متمشياً بشارع (125) مؤرجحاً عصاه الليلية متحدثاً مع كل من قابله هناك. يقع مبنى الوحدة الإدارية رقم (28) في الشارع الغربي 123 حيث تم استبقاء الأربعين شرطياً في نوبتهم بعد انتهائها في الساعة الرابعة مساء، كما تم تعزيز الوحدة بملء سيارتين من الشرطيين المدربين بكفاءة عالية وقوة التكتيكات المتجولة، كما حضر إلي الوحدة مسئولان رفيعان من الشرطة قاما بالإدلاء بتصريحاتهم للصحافة ، حيث صرح قائد قوة التكتيكات المتجولة (هاري فيسر) قائلاً "لم نرصد أي تحركات غير مشبوهة، لا نتوقع أن يتأزم الموقف" ، أما وكيل مفوضية البوليس (والتر آرم) صرح قائلاً "سنقوم بنشر مئات من رجال الشرطة الإضافيين في مناطق عدة بهارليم من بينهم أعضاء من مكتب الخدمات الخاصة" ، كما صرح مساعد الرئيس المفتش(هاري تيلر) "أن القتلة لم يندفعوا من قلب المرقص عبر المتجمهرين، ولكنهم مروا بالمسرح وهم هاربون الي الطريق رقم 165. كما قطع رئيس المباحث (فيليب. جي. والشي) إجازته للانضمام لركب اصطياد القتلة وذكر أنه مقبل على "تحقيق مسرف وطويل" .

كان رجال الشرطة والمراسلون الصحفيون في مسرح الجريمة، كانت هنالك خمسة ثقوب رصاصية محوطة بدوائر الطباشير البيضاء في موقع الحدث، كما كانت هناك ثقوب عدة في اللوحة الجدارية للمسرح والتي تنم على أن الكريات الرصاصية إما اخطأت القتيل أو نفذت عبره . رفض رجال الشرطة الفصل فى أمر الإشاعة التي اجتاحت هارليم أن بحوزتهم صور لمشاهد حية أخذت في مسرح الجريمة (أودبون) ، وإشاعة أخرى وجدت طريقها للسرعة أن الأخت بيتي زوجة القتيل عندما انكبت على جثة زوجها أخرجت من جيب بدلته ورقة كتب عليها أسماء من يعتقد أنهم مكلفون بقتله.

أكد وكيل مفوضية الشرطة (والتر آرم) أن الشعبة قد بذلت جهودها لحماية مالكولم أكس عشرين مرة له ولمساعديه فرفض ذلك، وتقدموا سبع عشرة مرة بحراس في كامل زيهم لاجتماعات الـ(يو-أيه-أيه-أو) في مرقص (اودبون)، وكان آخر يوم اقترحوا فيه مساعدتهم هو يوم الأحد المنصرم، وعندما سئل عن المسدس الذي استأذن مالكولم الشرطة لامتلاكه وذلك لأنه صرح يوماً للملأ بأنه يخطط لأن يطلبه رسمياً، رد وكيل المفوضية قائلاً "على حد علمي لم يتقدم مالكولم بطلبه على أرض الواقع". وانصبت الأسئلة أن المشتبه الذي اعتقله رجل الشرطة (باترولمان هوي) عندما طورد في داخل المرقص لم يتم التصريح بهويته، وأن تصريحه بأن مالكولم اكس رفض حماية الشرطة يتنافى مع تصريحات كثير من زملائه الذين أفادوا أن مالكولم خلال الأسبوع السابق لاغتياله اشتكى بتكرار أن الشرطة لم تحمل طلبه للحماية محمل الجد. في النهاية رغم أن مصدراً بالشرطة ذكر أن تقريراً مفصلاً خاص بحوزتهم لعشرين رجل من طرفهم كلفوا بمراقبة اللقاء، كما أن اللقاء حضره عملاء من مكتب الخدمات الخاصة، إلا أنه ليس هناك دليل على وجود الشرطة أثناء اللقاء أوحتى بعد عملية الاغتيال، بدليل أن (تالمدش هير) أنقذ من الجماهير وتم اعتقاله كمشتبه مباشرة بعد عملية الاغتيال وقد التقطه شرطيان من الدورية كانا على متن سيارتهما التي تجوب بالمكان.

عبر التلفونات البعيدة المدى وفي إطار حادث الاغتيال استطاع المراسلون الصحفيون الاتصال بالقصر المنيف بمدينة شيكاغو، حيث يجثم المركز القيادي لـ (أليجاه محمد) ، لم يرد على التلفون ولكن أكد ناطقه الرسمي أن أليجاه ليس له تعليق اليوم ولكن ثمة شيء سيقوله غداً. لم يفد الصحف حتى شقيق مالكولم الكبير (ويلفيرد اكس) وزير المسلمين السود للمسجد رقم (1) في (ديترويت) ،في منزله أفادت الصحافة امرأة بأنه غير موجود بالمنزل ولم يذهب إلي (نيويورك) ولا تعتقد أنه يخطط لفعل ذلك, وصل الوزير (ويلفريرد) مؤخراً وذكر أنه كان يتوقع حضور

اجتماع المسلمين السود في شيكاغو في يوم الأحد القادم، كما أفاد بخصوص شقيقه مالكولم "إن شقيقي قد مات ولا نستطيع فعل شيء لنرد له حياته" .

وبحلول الظلام احتشد كثير من النساء والرجال الزنوج أمام متجر (لويس ميشاو)، مركز انطلاق مُعظم الأنشطة العامة للقوميين السود، وكانت مجموعات صغيرة من أعضاء (يو-أيه-أيه- أو) قد فتحوا مقرهم بفندق (ثيريزا) وجلسوا في الغرفة ولم يدلوا بأي أقوال للمراسلين الصحفيين.

وقد أفردت (النيويورك ديلي نيوز) صفحة كاملة لمقتله وعلقت أسفل الصورة التي ظهر فيها محمولاً على النقالة (أغتيل في جمع غفير) ، وتعليق لأبنته بـ(لونق مان) (عطا الله) ذات السنوات الست والتي لم تستفيق بعد من فجيعة موته "أبي العزيز أحبك دائماً وأبداً كم يعز علينا فراقك" .

كان الجثمان يحمل اسم (جون دو) حيث لم تكتمل في ذلك الوقت إجراءات التعرف على هويته، فقد نقل في فجر يوم الأحد لعيادة الفحص الطبي بنيويورك، وقد أكد تشريح الجثمان أن عدة جروح في القلب من جراء زخات رصاصية تسببت بموته، كما ذكر رئيس فريق الفحص الطبي دكتور (ميلتون هيلبيرن) أن مالكولم مات مباشرة إثر اختراق الرصاصات التي أحدثت ثلاثة عشر جرحاً بالصدر والقلب، كما ذكر أن ثمة جروحاً أخرى لرصاصات عيار 38و45 قد اخترقت فخذه وساقه، مما يدل على تعرضه لإطلاق النار حتى بعد سقوطه على الأرض.

في صبيحة يوم الاثنين تمت الإجراءات الرسمية للتعرف على الجثة في عيادة الفحص الطبي بواسطة الأخت بيتي، برفقتها كل من (بيرسي ستون) و(إلا) شقيقة مالكولم أكس في بوسطن و(جوسيف هول) المدير العام لاتحاد دار الجنازة في هارليم، حيث غادرت الأخت بيتي عيادة الفحص الطبي في الظهيرة لتكملة الترتيبات الجنائزية، حدثت المراسلين الصحفيين قائلة "لم يصدق أحد ما قاله ،لم يحملوا الأمر محمل الجد، حتى عندما فُجِّر منزلنا كانوا يعتقدونه الفاعل" .

في مقر اتحاد دار الجنازة والذي يقع بالجانب الشرقي للشارع الرئيسي رقم (8) بين الشارع رقم 126 والشارع رقم 127، هنالك قامت الشقيقة بيتي باختيار نعش برونزي مقاس 6 قدم – 9 بوصة مبطن بالمخمل، وبناءً على طلبها سوف تؤجل الشعائر الجنائزية حتي يوم السبت القادم، وقد صرح مدير دار الجنازة (هول) للصحافة أن الجثمان والذى يرقد صاحبه في كامل بذة العمل سوف يُعرض تحت وقاء زجاجي من يوم الثلاثاء حتى يوم الجمعة ، وفي يوم السبت سوف يجرى قداسه بكنيسة هارليم.

وفي الحال أضيف اسم جديد الي دليل الدار (الحاج مالك الشباذ). في بروكلين ذكر شيخ الحاج داؤود أحمد فيصل، مرشد البعثة الإسلامية بأمريكا، "أن تأخير الشعائر الجنائزية يتنافى مع التعاليم الإسلامية بأن لا تغرب الشمس على جسد المؤمن مرتين وأن القرآن أمر بالدفن خلال أربع وعشرين ساعة إن أمكن ذلك". فالمسلمون يعتقدون أن الروح تفارق الجسد عندما يصبح بارداً و تعود إليه عند دفنه.

في شيكاغو أقام رجال الشرطة مراقبة شاملة على محطات البصات والسكك الحديدية ومطار (أوهير) ومداخل الطرق البرية.

وضع أليجاه محمد تحت حراسة مشددة في قصره ذي الثلاثة طوابق "مات مالكولم بسبب ما كان يدعو له، ونحن لا نسامح رجلاً من هذا النوع، لقد وعظ بالحرب ونحن نعظ بالسلم، أُمرنا بالقتال إذا أُعتدى علينا ، ذلك ما ذكر في الكتب المقدسة القرآن والإنجيل، ولكن مهما يكن فلن نكون المعتدين، ليس لي الحق في أن أكون مروعاً، لأن الله من قام باختياري، ولو سلمني الله إلي أيدي الأشرار سيرضيني ذلك، لأن حياتي بيد الله". كانت الأرض خارج القصر مليئة برجال شرطة شيكاغو وحرس (ثمرة الإسلام) وكان كثير من هؤلاء يجوبون أيضاً أمام الجامعة الإسلامية ومكاتب جريدة (الحديث المحمدي).

ذكر محامي مالكولم (بيرسي استون) أن البوليس تحصل على أسماء من وصفهم مالكولم بالمخططين لقتله.

في كل أنحاء هارليم كان المراسلون الصحفيون يحاورون الناس. وكانت الميكروفونات توضع أمام أفواه المارة على الطرقات، في الوحدات الإدارية للشرطة والمنازل أيضا سُئل الناس ،قال مساعد الرئيس المفتش (جوزيف كويل) المسؤول عن دائرة مباحث شمال (مانهاتن) "أنها مؤامرة جيدة الحبك نحن نقوم بعملية غربلة لأربعمائة شخص كانوا في الصالة لحظة موته، خمسون رجل مباحث يتولون القضية، كما ذكر أنه على اتصال مع رجال الشرطة في عدة مدن أخرى".

كان معظم سكان هارليم يغطون في نوم عميق وفي الساعة الثانية والربع صباحاً دوي صوت انفجار هائل مزق أستار الليل حول مسجد المسلمين رقم (7) في الطابق الأخير من المبنى الذي يتألف من أربعة طوابق، فتم استدعاء رجال الإطفاء بواسطة رجال الشرطة الأربعة والذين كانوا يحرسون المدخل الجانبي للمسجد. وخلال دقائق قليلة انتشر اللهب في سقف المبني، ومن ثم لارتفاع ثلاثين قدماً في الفضاء لمدة السبع ساعات اللاحقة، كان رجال الإطفاء يبذلون جهدهم لإطفاء المبنى، حيث وجدوا في السقف المجاور خمس علب فارغة من الجازولين وشنطة تسويق بنية اللون عليها بُقع

الجازولين وأثمال مزيتة، وكانت خدمات الشارع الجنوبي الفرعي (أي. أر. تي) قد أعيد توجيهها لفترة وجيزة، وكذلك ثلاثة خطوط بصات، وسقط جدار المبني في مشهد اللهب المتصاعد الدرامي مما أدي الي سحق سيارتي إطفاء على الرصيف وجرح اثنين من رجال الإطفاء وتأثر أحدهما بجرح عميق، كما جرح أحد المارة أثناء عبوره لشراء الجرائد. وعند أوائل الفجر عندما أُعلنت (السيطرة على الحريق) كانت النيران قد التهمت مسجد المسلمين السود وكنيسة (جيسمين) في الطابق الأسفل، بينما اختفت سبعة متاجر أرضية من بينها مطعم المسلمين. وأعلن مصدر من شعبة الإطفاء أن إعادة استبدال المعدات التالفة سيكلف مبلغاً يُقدّر بخمسين ألف دولار، ذكر (جوزيف اكس) من المسلمين السود والذي كان ذات يوم المساعد الأول لمالكولم اكس أن أتباع اليجاه محمد لديهم مسجدان بديلان لزيارتهم فيه، أحدهم في (بروكلين) والأخر في (كوين لونق ايلاند) وكلاهما تحت حراسة الشرطة المستمرة. وعلى ذات النسق وفي ظهيرة يوم الثلاثاء بـ(سانفرانسسكو) اكتشف اثنان من رجال الشرطة أن هناك بداية لحريق مفتعل بمسجد المسلمين السود فقاموا بإطفائه سريعاً، حيث استخدمت مادة الكيروسين في الممشى والباب.

كان تشييع جثمان الحاج مالك الشباذ مبرمجاً له عبر استعراض جمهوري في الساعة الثانية والنصف مساءً من يوم الثلاثاء حيث وقف المزدحمون خلف حواجز الشرطة منتظرين الدخول، وانتشر رجال الشرطة، حتى السيارات كانت تجوب حول المكان والقناصون في أعلى الأسقف حول دار الجنازة، ولكن تهديدات التفجير التلفونية والتي ابتدأت في الظهيرة جعلت من الضرورة إخلاء الدار مرتين، وذلك لإتاحة الفرصة لفرق تفتيش القنابل ولم تسفر عن شيء، وقد جرى البحث والتفتيش حتى في مكاتب صحيفة (النيويورك تايمز) عندما هاتفهم أحدهم متزمراً من افتتاحية مالكولم اكس "سيدمر مبناكم في الساعة الرابعة". وفي دار الجنازة بهارليم قام رجال الشرطة بتفتيش كل الطرود الواردة ولم يستثنَ من ذلك حتى قطع الزهور الواردة وشنط النساء المعزيات. وفي الساعة السادسة والربع مساءً وصلت الأخت (بيتي) في طوق من رجال الشرطة وأربعة من أقاربها وبعض أصدقائها، فدخلوا دار الجنازة وسيماهم تفيض بإشراقة المصابيح الوضيئة، فعلق أحد المراسلين من جراء ذلك قائلاً "إنها جاكيولين كنيدي السوداء، إنها من الصنف الذي يعرف ماذا يفعل ومتى يكون ذلك إنها تدير نفسها بلباقة" .

كانت الساعة تشير إلى السابعة وعشرة دقائق مساءً عندما ظهرت العائلة واختفت، وبعد عشرة دقائق دخل الفوج الأول من المنتظرين وبعد ذلك ولمدة ساعة قبل منتصف الليل كان قرابة ألفي نسمة يتضمنهم عدد من البيض قد مروا بالنعش المفتوح

الذي رقد فيه الجثمان مرتدياً بذة عمل سوداء وقميص أبيض وربطة عنق سوداء ومستطيل نحاسي صغير، نقش في أعلاه:-

الحاج مالك الشباذ 19 مايو 1925م – 21 فبراير 1965م

كما ناشد أنصار مالكولم اكس بقلق متزايد كنيسة هارليم لقبول التشييع الجنائزي المعد في يوم السبت، فقد رفض المسؤولون في عدة كنائس وفيما بينهم الناطق الرسمي ورجل الكونقرس المعروف (أدام كلينتون باول) القس المبجل بالكنيسة المجتمعية.

كما تجاهلت بعض الكنائس مناشدات قبول التشييع وفقاً لما ورد في (امستردام نيوز) تشمل هذه الكنائس:-

كنيسة ويليام (أي.أم.سي)

كنيسة معبد الرب يسوع المسيح.

ثم أخيراً قبل بالتشييع (اليفن – ايه) الأسقف بكنيسة معبد الإيمان بالمسيح ابن الله .

كنيسة معبد الايمان كانت قبل خمسين سنة مسرحاً للأفلام فبُدل إلي كنيسة قابلة لإجلاس ألف نفر في صالة العرض وسبعمائة في البيدروم, تقع الكنيسة بتقاطع الشارع 147 وشارع أمستردام.

حدّث الأسقف (اليفن) الذي انتخب في 1964م محافظاً لمحلية هارليم الصحافة قائلاً " تأتي موافقتنا على التشييع من محض الإنسانية الخالصة" ، وعن مالكولم إكس قال" يا له من رجل مناضل لا أتفق مع كل آرائه الفلسفية، ولكن ذلك لا يعيب صداقتنا" .

وما أن انتشر هذا الخبر حتى توالت الدفعة الأولى من مهاتفات التهديد لتنال كل من الأسقف(اليفن) وزوجته، ولم يستثنَ من هذه التهديدات حتى تفجير الكنيسة ومنزلهما الخاص.

استشهدت الوسائط الصحفية بردود أفعال كثير من الشخصيات البارزة في المجتمع الزنجي، مثل الطبيب النفساني الشهير (كينيذ .بي .كلارك) حيث حدث مجلة (جيت) قائلاً "أكِنّ احتراماً عظيماً لهذا الرجل ، أؤمن أنه سعي بإخلاص لإيجاد سبيل في حركة الكفاح من أجل الحقوق المدنية بمستوى يجب أن يقدرله ، وقد أخذت بنجاحه في هذا الطريق، لا يهمنى ماضيه ، ويالها من مأساة أن تزهق روحه وهو قاب قوسين أو أدني من الاحترام الذي سعي اليه" ، كما استشهد مراسل (النيويورك

تايمز) في مؤتمر لندن الصحفي بأقوال المؤلف الدرامي (جيمس بولدوين) والذي اعتقد أن موت مالكولم أكس يمثل نكسة كبيرة للحركة الزنجية ، ثم أشار الي الصحفيين البيض منفعلاً "أنتم من فعل ذلك وكل من تشكل في بوتقة المجتمع الغربي والجمهورية الأميركية قد فعل ذلك، إن الاغتصاب الأوروبي لإفريقيا تنتج عن مشاكل عرقية وذلك كان بداية النهاية بالنسبة لمالكولم إكس". أما صاحب المكتبة في هارليم ذلك الصوت الموقر في المجتمع (لويس ميتشاو) ذكر لأمستردام نيوز قائلاً "حدث مثل مقتل مالكولم إكس يجب أن يَضُم التكتلات المتنافرة إلي بعضها البعض، لقد لقي مصرعه بنفس الطريقة التي مات بها (باتريس لومبا) في الكنغو ، يجب أن يذكرنا هذا بوحدتنا وليس اقتتالنا".

أما (بليارد رستن) وهو من الشخصيات البارزة في تنظيم (واشنطن للأمام) 1963م علق قائلاً "لقد دفع مالكولم بكثير من الشباب الزنوج لاتخاذ رؤية جديدة لأنفسهم" . وعلى حد قول (جيمس فارمر) المدير القومي لمنظمة (سي .أو.آر.إي) "هناك طرف ثالث في اغتيال مالكولم إكس، إن اغتياله معد له لإحداث مزيد من العنف والاغتيالات الثأرية"، وبعد أيام قليلة سئل عن وجهة نظره في الإشاعة القائلة أن (الصينيين الحمر) خلف مؤامرة الاغتيال، فرد فارمر (لا أتوقع استحالة ذلك).

بالنسبة للزنوج في أمريكا فإن موت مالكولم إكس يعد أكبر حدث مأساوي منذ نفي ماركوس قارفي في عام1920م على حد قول(إيرك لينكولن) كاتب المسلمين السود في أمريكا الذي تحدث إلى الصحافة في جامعة بروان. أما (أر.أي) وزميل باحث "لا أظن أن هناك مؤامرة عالمية في عملية القتل، الإجابة على ذلك تكمن داخل أرض الوطن، إنه الصراع الداخلي بين المتنافسين لزعامة الكتل السوداء والتي تعد من أكثر المجموعات المتأثرة بهذه الظاهرة في أمريكا" . كما ذكر (روي ويلينكس) السكرتير التنفيذي للاتحاد القومي لنهضة الملونين "كان ساحراً للألباب، وهاهي ذي آيات سحره تأخذ الجميع عند موته أكثر مما كان يفعل في حياته" .

المحققون في القضية أبدوا عدم رضاهم حيال أتباع مالكولم إكس وذلك لعدم تعاونهم في عملية التحقيق، بناءً على طلب البوليس نشرت الصحف رقم التلفون (دبليو . اس 8117050 (سري للغاية) لكل من يرغب في تقديم معلومات عن الجريمة وأمسكت الشرطة (ريوبين فرنسيس) الموصوف بحارس مالكولم والمعتقد بأنه من أطلق الرصاص على المشتبه (تالمدش هير) في العراك الذي حدث في يوم الأحد السابق في مرقص (أودبون هير) والمحتجز بمستشفي السجن في انتظار العملية الجراحية.

بينما كان الألوف مستمرين في مشاهدة الجثمان بين التهديدات التلفونية المتقطعة بتفجير دار الجنازة ومعبد الإيمان، ظهرت منظمة جديدة على المشهد وهى منظمة (إتحاد العمل السياسي المستقل)، حيث هددت المنظمة بتعبئة كل مؤسسات العمل التي لن تغلق أبوابها من ظهر الخميس وحتى يوم الإثنين تكريماً لمالكولم إكس ، وكان الناطق الرسمي للـ (اف- أي- بي - إيه) (جيس قري) قائد (إضراب الإيجار الشهير) قد صرح قائلاً "بدأ المشاة بهارليم توزيع مناشير ورد فيها أن المتاجر لو رفضت قفل أبوابها تضامناً، سيعدون بذلك أنصاراً للأعداء وسوف يغلقون عنوة . وكل المتاجر على امتداد الشارع 125 من غير المتضامنين في الساعات الممنوحة للقفل سيعدون سدنة القتلة والذين سمحوا للنظام السلطوي من استخدام أذرعه الخفية لقتل الشقيق مالكولم" .

في أواخر المساء احتشدت حشود (أف-أي-بي-ايه) أمام مكتب لويس ميشاو، حيث صرح (جيسي قري) أن عام 1965م سيشهد ترشيح أحد الزنوج كمحافظ لنيويورك تكريماً لمالكولم أكس وسينال هذا المرشح مائة ألف صوت، وبعد فترة وجيزة من حشد(اف-أي-بي-أيه) اجتمع التجار وأعضاء آخرون في الغرفة التجارية لشمال مدينة هارليم وخرجوا بقرار يحث كل المتاجر بهارليم أن تفتح وتستمر في خدمة الزبائن، هناك توصية بدفع مبلغ كامل لكل موظف في متجر يرغب في حضور التشييع الجنائزي في صبيحة يوم السبت.

وبعد ذلك قام قادة هارليم بانتقاد مسلك (اف-أي-بي-أيه) ووصفه بالـ(المستهتر)، وفي الختام استمرت المتاجر في فتح أبوابها.

جمعت الـ (اف . أي . بي . أيه) قرابة العشرين محرض اضراب، فجابوا متاجر هارليم الكبيرة وكان هنالك اثنان من البيض يحملون لافتات كتب عليها (فلتغلق المتاجر كلها تكريماً لماكولم إكس).

أصبح الجو بارداً فتدلت الإبر الثلجية من السقف المنهار من حطام المبني والذي كان يأوي مسجد المسلمين رقم(7). ظهر مبني (أمستردام نيوز) حيث توجد مكاتبها والذي يبعد بمسافة ثمانية شوارع من دار الجنازة حيث يرقد الجثمان. ذكرت في افتتاحيتها أن (التكريمات المنظمة التي حظى بها مالكولم بعد موته قد أربكت نقاده وألجمت أصواتهم وكل الذين كانوا يتمنون أن يروا السود وهم يتظاهرون فوق حطامه).

انطلق الخوف من أعمال الشغب الجماعي بشرارة غير متوقعة تعلقت راسخة في الفضاء، وتواترت التصريحات من قادة هارليم أن السبب الأساسي وراء هذه

المخاوف هو ما يصدر من صحافة الرجل الأبيض بجنوب المدينة واستكانتها لتهويل الأمور، و في الختام أصدر اتحاد وزراء الأديان بهارليم بياناً رسمياً ذكر فيه (إن العناوين الرئيسية السافرة لعدد من الجرائد، جعل الأمر وكأن هارليم على بكرة أبيها معسكر مسلح جاهز للانفجار في أي لحظة ، وأن الأغلبية العظمى من مواطني هارليم ليسوا متورطين في أعمال العنف المؤسفة والتي لعبت الصحافة دوراً بارزاً في إذكائها، وفي كثير من الأحايين يلعب التحابي والمحسوبية الإخبارية دوراً في خلق جو صالح لحفنة من المنحرفين والمستهترين لاستغلال هذا الظرف لصالحهم).

مالكولم إكس (الحُطام الميت) جاء هذا العنوان في امستردام نيوز كصدمة لكثيرين في المجتمع، القليل كان يعرف أنه عندما أصبح وزيراً قد وَّقع على ميثاق التقشف، ففي مسيرة حياته ذات الاثنتي عشرة سنة لم يستلم أي مبلغ باسمه (قرأت في مكان ما أن مالكولم عندما كان بمنظمة المسلمين السود، كان يتقاضى مبلغ مائة وخمسة وسبعين دولار في الأسبوع لتغطية نفقات حياته ومصروفات أخرى باستثناء السفريات). كما ذكرت امستردام (مات تاركاً بناته الأربع وزوجته الحامل من غير تأمين ضد أي نوع ومن غير مدخرات أو مصدر دخل)، كما ذكرت امستردام (ويضاف إلى كل ذلك أنه لم يترك وصية فقد جعل يوم 26/فبراير ميعاداً مع المحامي أي بعد خمسة أيام من تاريخ موته).

خلال أسبوع انتظمت مجموعتان لمناشدة أهالي هارليم للتبرع لمساعدة الأخت (بيتي) لتعليم بناتها تحت مسمي (صندوق دعم بنات مالكولم إكس) ببنك الحرية القومي بهارليم. في (بوسطن) ذكرت شقيقته (الآ) في مؤتمر صحفي بأنها ستختار من سيخلفه في قيادة الـ (يو.أيه.أيه.أو) وهي تعمل الأن بمدرسة (سارا الصغرى للفنون التحضيرية) حيث يقوم الأطفال بدراسة اللغات العربية والسواحيلية والفرنسية والأسبانية ، وهي أيضاً في عام (1959م) انشقت من منظمة أليجاه محمد (المسلمون السود) التي ردها إليها مالكولم إكس.

بعيداً من هارليم في الديار التي سافر إليها مالكولم غطت الصحف خبر الاغتيال بطريقة أثارت غضب مدير وكالة الإعلام بالولايات المتحدة (كارل –تي-روان) وهو زنجي في حد ذاته ، حيث ذكر (روان) في واشطن مخاطباً الإتحاد الأمريكي للخدمات الأجنبية بأنه عند استماعه للاغتيال وللوهلة الأولى كان يعلم أن الحدث سوف يُساء فهمه بطريقة واضحة في بعض الدول التي لا يعلم الناس فيها ما يجسده مالكولم اكس . وذكر أن الـ (يو – اس-أي- ايه) قد بذلت جهداً لإخبار الصحافة الإفريقية بحقيقة مالكولم إكس وما يوعظ به، ولكن مازال هنالك رد فعل أفريقي مبنياً على المعلومات الخاطئة والتشويه.

كما ذكر لي مدير الـ(يو- اس أي – أيه) قائلاً "تذكر لدينا هنا زنجي يعظ بالعنصرية والكراهية العرقية وهذه الصفات لا تتمثل في أقل كيان من المجتمع الزنجي الأمريكي" ، قال ذلك ثم دفع لي ببعض الصحف الأجنبية "كل هذه عن مدان سابق ومروج للمخدرات الذي أصبح في ما بعد متعصباً عرقياً ، وخلاصة القول : نحن الأمريكيين نعرف القليل عما يجرى في أذهان الآخرين ، ونحن في حوجة ماسة لإبلاغ الحقيقة والإقلاع عما نراه بسيطاً في نظرنا" .

ذكرت (الديلي تايمز) بمدينة لاغوس النيجيرية (مثل كل البشر لا يخلو مالكولم من الأخطاء ولكنه شخص كرس نفسه وثبت على مبادئه كتلميذ نجيب لحركة التحرير مثل سائر إخوته، وهل في ذلك شك؟ ، مالكولم إكس قاتل ومات من أجل ما يعتقد أنه الصحيح وله مكان في قصر الشهداء)، كما وصفت التايمز بمدينة (أكرا) الغانية مالكولم إكس بالمناضل والأكثر شعبية في القادة الأفارقة بأمريكا الناهضين ضد التفرقة العنصرية فأضاف ذلك اسمه إلي من سبقه في ذلك من الأفريقيين والأمريكيين انتقالاً من (جون براون) إلي (باتريس لومبا) وغيرهم من الذين استشهدوا في سبيل الحرية، وأيضاً في (اكرا) ذكرت(الديلي قرافيك) أن اغتيال مالكولم إكس سيذكر على مر التاريخ كصفعة قوية في جبين حركة الوحدويين الامريكيين منذ الاغتيال الفاضح لـ(ميدجار ايفرس) و(جون كنيدي). في الباكستان ذكرت التايمز الباكستانية (أن موته نكسة لحركة التحرير الزنجية). أما صحيفة (حريات كراش) ذكرت (كان قائداً زنجياً عظيماً).

أما الصحيفة الصينية (البيبول ديلي) فقد ذكرت (حدث الاغتيال لأن مالكولم اكس..... وناضل من أجل تحرير ثلاثة وعشرين مليون زنجي أميريكي).

بموجب تقرير المراسل الصحفي ذكر العنوان الرئيسي الأول للجزائرية (الكوكو لوكس كلان)(قتلوا مالكولم اكس). كما اتهمت (الشيوعي المحترف) بالجمهورية الجزائرية في افتتاحيتها (إنها الفاشية الأمريكية من فعلت ذلك). كما ذكر مراسل (التايمز الجزائرية) أن الجزائريين أبدوا شارات الرضا برفع مالكولم إكس إلي مصاف الشهداء) .

أما قنصل الولايات المتحدة في مدينة جورج بغيانا البريطانية فقد فُوجئ متهماً (إنها الأمبريالية الأميركية).

كما ذكرت صحيفة صينية أخرى (جينمين جيهابو) (أن عملية الاغتيال وضحت للجميع أنه في التعامل مع المعتدين الأمبرياليين يجب أن يواجه العنف بالعنف).

أما (البراقدا) في موسكو تحدثت عن حكايات مختصرة ولم تذكر أي تعليق في الافتتاحية. كما ذكر مراسل صحيفة النيويورك في موسكو وأيضا مراسل من بولندا عن عدم تجاوب ردود الأفعال مع الحدث من أي نوع كان، فنفر قليل من البولنديين سمع بمالكولم أو يمكن القول أنهم غير مهتمين أصلاً بالقضية العرقية.

في سياق ردود الأفعال التقريرية للحدث، يجدر القول أن حادث الاغتيال تم تقريره بصورة روتينية مع اهتمام خاص وقليل من قبل الصحافة في كل من القاهرة، بيروت ، نيودلهي، سايجون. أما في باريس وأروبا الغربية كان الحدث مجرد (إحساس مهم ليوم واحد).

أما صحافة غرب ألمانيا تعاملت مع الحدث مثل أي آخر درجت عليه عصابات شيكاغو. ذكرت النيويورك تايمز (من المتوقع أن تولى صحف لندن الحدث اهتماماً أكثر من ذي قبل، مشددة على نحو مستمر بوضوح بصمات الشرطة في الاغتيال). أما التايمز اللندنية ولندن ديلي تلغراف كل من الصحيفتين علق على الحدث في افتتاحيتيهما، ولكنهما لم يتعاملا مع مالكولم اكس كشخصية عظيمة، كما كتب مراسل النيويورك تايمز في لندن (هوجمت الولايات المتحدة بعنف من قبل مجموعة بلندن تطلق على نفسها مجلس المنظمات الإفريقية الولايات المتحدة متهمة إياها بعملية الاغتيال، تتكون هذه المجموعات من الطلاب وممثلين أفارقة غير رسميين). كما وصف إصدار صحفي مالكولم اكس(قائد في كفاح ضد الامبريالية الأمريكية والعنصرية والقمع) ، كما ذكر(أن قتلة باتريس لومبا هم نفس الوحوش الذين قتلوا مالكولم إكس مع سبق الإصرار).

في نفس الحدث تطرقت العناوين الرئيسية لصحيفة نيويورك الصادرة في صبيحة يوم الجمعة لذكر اعتقال إدارة البوليس لمشتبه ثانٍ في جريمة القتل يدعي (نورمان 3 اكس بتلر) ، يبلغ من العمر ست وعشرين سنة وهو ممتلئ الجسم ودائر الوجه وخبير في الكاراتيه، يدعي أنه مسلم أسود، وبعد أسبوع لاحق تبع ذلك اعتقال (توماس(0) أكس جونسون) وهو أيضا مزعوم بانتمائه للمسلمين السود، وكل من الرجلين اتهم سابقاً في يناير 1965م بإغتيال (بنجامين براون)، ضابط شرطة الإصلاح و السجون بنيويورك والمنشق عن جماعة (المسلمين السود)، وكل من الرجلين متهم أيضاً بإغتيال مالكولم اكس.

بانتشار خبر اعتقال (بتلر) والكشف المبدئي لهوية انتمائه لمنظمة (اليجاه محمد) ، زادت حدة التوتر درجة أخرى لكل الذين لعبوا دوراً في عدائه.

كانت منظمة المسلمين السود ترتب لعقد اجتماعها القومي والذي سوف يقام بشيكاغو لمدة ثلاثة أيام ابتداء من يوم الجمعة ، وفي الصباح الباكر من يوم الجمعة في مطار (كنيدي) بمدينة نيويورك مكث رجال الشرطة زهاء الأربعين دقيقة في تفتيش طائرة تابعة لخطوط (كابيتال) والتي عادت في ديسمبر 1964م ، حيث وقعت على عقد طيران مع مسجد المسلمين رقم (7) من نيويورك إلى شيكاغو والعكس بمبلغ بلغ قدره 5,175,54 دولار والتي سيدفعه المسجد لاحقاً بزيادات.

عموماً كان هنالك ما يقارب الثلاثة آلاف مسلم أسود من مساجد ومدن مختلفة حضروا إلى (شيكاغو) للمشاركة في مؤتمرهم السنوي ، وهو عيد مرموق مثل (عيد الخلاص) عند المسيحيين. وعلى أثر الوصول اجتمعت كل مجموعة من المساجد والمدن المختلفة كل على حِدة خارج الاستاد (الكلوزيوم) الرياضي الكبير والذي يقع جنوب منطقة شيكاغو للأعمال.

برز الأخوة في مختلف الأعمار في سمت منظم وهم يرتدون حُللاً سوداء وقمصان بيضاء، أما النساء فكنّ يرتدين أثواب طويلة من الحرير وغطاءً بالرأس ، وقد تعرضوا جميعاً الي إجراءات الفحص الأمني المتشددة والتي ذكر مصدر في شرطة شيكاغو أنها من القلائل التي لم يسبق لها مثيل باستثناء زيارات الرؤساء، ولم يستثنَ من التفتيش حتى الأقارب غير المسلمين والذين حضروا للمشاهدة، وكذلك مندوبو الصحافة سود وبيض . وبعد التفتيش قام رجل من جماعة (ثمرة الإسلام) باصطحاب كل فرد إلي مقعده المخصص. وكان صوت الرياح عالياً وهي تعصف داخل المبنى ذي السبعة آلاف مقعد. لاحقاً حملت مصادر مسلمة (البيت النصف الأبيض) مسؤولية تقسيم الرجل الأبيض للزنوج ، ولكن المراقبون الذين استرجعوا أحداث الكلوزيوم الحشيد في عام 1964م ذكروا أن المخاوف قد أبعدت كثيراً من الزنوج غير المسلمين. جلس المتجمهرون خفافاً وهم يهمهمون تحت رايتين ضخمتين (مرحباً أليجاه محمد نحن سعداء أن نراك بيننا).

(لنا حق في تراب هذا الوطن)، وفي ذلك إشارة لطلب أليجاه محمد بأن يمنح الزنوج ولاية أو أكثر من الولايات الأمريكية وذلك بمثابة تعويض جزئي لما دفعه أباؤهم عبر العقود الطويلة من عرقهم ودمائهم الحرة كعبيد للبيض ، مما ساعد في تطور هذه الأمة الثرية والتي مازالت حتى اليوم تُبدي عدم رغبتها وعزمها لقبول فكرة المساواة مع الزنوج.

في مقدمة المنبر الواسع المرتفع برزت صورتان لـ(أيجاه محمد) ، كما وقف حرس (ثمرة الإسلام) بين المسرح والجمهور، وكان آخرون يجوبون بالممرات يتفرسون في الوجوه بكل الصفوف بلهجات آمرة لإبراز الهوية "أي مسجد يا أخي؟" ،

كما كان المزيد من عناصر (ثمرة الإسلام) يفتشون شرفات الكولوزيوم الفارغة وخلف الكواليس والسقف والطبقات. كان شبح مالكولم اكس في الكولزيوم، ففي موقف درامي قام ابن أليجاه محمد(والاس ديلانى محمد) والذي وقف يوماً إلي جانب مالكولم إكس، قام بمواجهة جمهور الكلوزيوم وطلب الصفح والمغفرة لما قام به من فراق الجماعة، ثم بعد ذلك شقيقا مالكولم اكس (ويلفرد) و(فيليبرد) وكل من الرجلين وزيراً في (المسلمين السود) ، طلبا الرجوع لـ(اليجاه محمد)، فقال (ويلفريد اكس) الوزير لمسجد المسلمين (ديترويت) "سنكون جاهلين لو استرسلنا في التجادل والقتال فيما بيننا لننسي من هو المجرم الحقيقي" . كما قال (فيلبيرد اكس) وزير مسجد (لانسينق) "كان مالكولم شقيقي في الدم وبعدى في الولادة ..... ولكني صدمت ، ليس هنالك من يتمنى أن يرى أخاه محطماً ولكني كنت أعلم أنه مسافر في طريق مستهتر وخطير، حاولت مراراً أن أغير مساره عندما كان حياً يرزق ، حاولت أن أحفظ حيات ولكنه مات ولا أستطيع فعل شئ الآن . ثم قال مشيراً الي (أليجاه محمد) "حيثما قادني هذا الرجل سأتبعه " . وبعد ذلك قدم (فيلبيرد اكس) قائد المسلمين السود (أليجاه محمد) لمخاطبة الجمع .

كان وجه (أليجاه محمد) بادياً مرئياً من بين وجوه عناصر (ثمرة الإسلام) المتجهمة من بينهم (كوزيوس كلي)، فبرز (أليجاه) في طربوش صغير مطرز بخليط من الأهلة والنجوم والشموع فقال مخاطباً " لزمن طويل وقف مالكولم هنا حيث أقف الآن، في تلك الأيام عاش في أمان محبوباً كان الله بنفسه حافظه وراعيه ..... لأكثر من سنة أعطيته حريته ، فذهب إلي كل مكان ، آسيا، أوربا وأفريقيا وحتى مكة، لكنه ذهب ليصنع أعداء ضدي ،ثم عاد ليعظ بأن لا نبغض العدو ..... جاء هنا قبل عدة أسابيع قليلة ليفجر عداوته ويرمني بأزباله، كل ما صار يستهويه أن يلحق بي الخزي والعار. لم نرد قتل مالكولم ولم نحاول ذلك، إنهم يعلمون أنني لم أحاول حتى ايذائه، إنهم يعلمون أنني أحبه ولكن تعاليمه الغبية هي ما قادته الي قدره المحتوم.....

وتضافرت كل ردود الأفعال الحسية والمعنوية حتى (أليجاه) بدأ يسعل "ليس له الحق في إبعادي"، فتجاوبت أصوات الحاضرين "لا عليك خذ راحتك" ، ثم استرسل قائلاً "كان نجماً ساطعاً ولكنه ضل سواء السبيل ... إنهم يعلمون أنني لم أؤذه، ولكنه من حاول إشعال الحرب ضدي، ولو مكث مع المسلمين السود ومات موتاً طبيعياً لكان قد منح أجل وأعظم مراسم يدفن بها إنسان وكان ذلك خيراً له ممن وقف على مقبرة النفاق، مالكولم اكس من كان يقود؟ من كان يعلم؟ وأي حقيقة ينطلق منها؟ لم نرد قتل مالكولم ولكن تعاليمه الغبية ما دفعت به الي النهاية، سوف لن أسمح للمعتوهين بتحطيم كل النعم التي حباني الله بها وحباكم.

استنفد (أليجاه محمد) ساعة ونصف ليقود دفة الحديث بطاقته المتداعية، متحدياً كل القتلة وكل من يحاول التغريد خارج سربه، فهو يستدعي قيامته بذلك، "حدث القرآن الكريم أن لا نبدأ بالقتال إلا دفاعاً عن أنفسنا وسنقاتل" .

كان النهار منتصفاً عندما فارق (أليجاه) المنبر عائداً إلي مجلسه، وسط هتاف ثلاثة آلاف مسلم أسود ومسلمة، رجالاً ونساء وأطفال "حسن سيدي، جميل ذلك، وكل الشكر لمحمد" .

في اتحاد دار الجنازة استوقف العرض الجماهيري لجثمان مالكولم وصول جماعة تتألف من اثني عشر رجلاً، وكانت الشخصية المحورية من بينهم رجلاً كهلاً يرتدي زياً أسوداً وعمامة بيضاء، يتدلى ذقنه الأبيض حتى صدره، يحمل عصاة متشعبة، وعندما اندفع المراسلون الصحفيون لمحاورته ردهم عن ذلك رجلاً آخر شيخاً "إن اللسان الصامت لا يخون صاحبه" ، أحمد حسون سوداني الجنسية وهوعضوٌ في جماعة المسلمين السنيين والذي درس في مكة قرابة الخمس وثلاثين سنة، فقابل مالكولم إكس هناك ، ثم حضر تواً إلي الولايات المتحدة ليعمل كمرشد روحاني للفقيد مالكوم إكس وليعلم في مسجد المسلمين(أي.أن.سي).

قام الشيخ حسون بتحضير الجثمان وفقاً لطقوس (غسل الجنازة) عند المسلمين مزيلاً الثياب الإفرنجية عن الميت، قام بغسله بواسطة زيت مقدس خاص، ثم قام بطي الجسد في كفن من الكتان الأبيض، تاركاً الوجه والشارب واللحية الحمراوين مكشوفين، فسار المعزون الذين حضروا معه نحو النعش، فتلى الشيخ آيات من الذكر ثم تحول إلي ممثل دار الجنازة قائلاً "الجسد في كامل جاهزيته الآن" ، فغادر الشيخ وبطانته واستمر العرض، وانتظم بعض الحضور في صف طويل بطيء الحركة لرؤية (الكفن) عند المسلمين.

كان الوقت متأخراً في ظهيرة تلك الجمعة عندما دلفت إلي الصف البطيء الحركة مفكراً في مالكولم أكس الذي عاشرته قرابة السنتين، فبرز رجال من الشرطة في حللهم الزرقاء وهم واقفون في مسافات متقاربة ، وكانوا ينظرون إلينا ونحن نجرجر أقدامنا عبر الحواجز الخشبية ذات اللون الرمادي.

وعبر الطريق كان هناك عدة رجال ينظرون إلي الصف من خلف النافذة الجانبية الواسعة لدكان الحلاقة (النجم الوحيد) ايدي جونز، يروب ويليام آشي وآخرون، وبين رجال البوليس ظهر نفر قليل من مندوبي الصحافة وهم يتحدثون إلى بعضهم البعض، وبعد ذلك كنا في داخل معبد صغير بالكنيسة خافت الإضاءة ذي رطوبة وسكون، حيث وقف على نهاية كل جانب من الكفن البرونزي الجميل رجلان ضخمان من

رجال الشرطة السود، كانوا ينظرون بنظرات متجهة إلى الأمام، ثم ما يلبثوا تحريك شفاههم عندما يتأخر أحد الناظرين، فجاء دوري لرؤية الكفن خلال دقائق، فنظرت عبر الغطاء الزجاجي إلي الغطاء الأبيض الناعم فوق الصدر ثم إلي أعلى فبدأ مثل القلنسوة حول الوجه الذي حاولت أن أحدق فيه لأطول فترة ممكنة، كل ما فكرت فيه أن ذلك مالكولم إكس في أحسن أحواله، ثم أتاني صوت الشرطي ناعماً "تقدم" ، فنظرت إليه ميتاً ومشمعا ً، ثم أشار إلي الشرطي بيديه "حسناً مع السلامة" ، فتقدمت إلي الأمام.

شاهد الجثمان اثنان وعشرون ألف شخص حتى توقف الصف عند الساعة الحادية عشر مساءً. و بهدوء بين منتصف الليل والفجر، قامت اثنتا عشرة سيارة للشرطة بإحاطة عربة النعش والتي انطلقت نحو شمال المدينة إلي معبد الإيمان، حيث أدخل هناك الكفن البرونزي ووضع في المنبر أمام المذبح، فأعيد فتح غطاء الكفن.وبينما كانت عربة الجنازة تنسحب من الموقف، اتخذ رجال البوليس مواقع حراستهم داخل وخارج معبد الإيمان، وكان الجو في الخارج بارداً ومنعشاً .

في حوالي السادسة صباحاً بدأ الناس في تكوين صف في الجانب الشرقي من شارع (امستردام)، وفي الساعة التاسعة تجمع ما يقدر بستة الآلاف شخص خلف حواجز الشرطة، وكانت الوجوه تطل من خلف النوافذ بالمباني الشققية ،كما وقف بعضهم مرتعداً على سلالم النجاة من الحريق، من الشارع 145 حتى الشارع 149 أوقف رجال الشرطة الحركة، ماعدا سياراتهم الخاصة وسيارات الصحف وشاحنات معدات الإذاعة والتلفزيون المتجهة نحو موقع التغطية، وكان هنالك المئات من رجال الشرطة بعضهم في قمة الأسطح المحيطة بالمنطقة، وكان المراسلون الصحفيين يتسللون عبر الزحام بمفكراتهم وميكروفوناتهم يستطلعون الجمهور "كان رجلاً ساحراً ومميزاً، فلذلك حضرت إلى هنا"، هكذا تحدثت فتاة بيضاء في منتصف العشرين من عمرها إلي (النيويورك تايمز). كما علق كل رجل وامرأة من الزنوج "جئت لأعبر عن احترامي لأعظم رجل أسود في هذا القرن، إنه أسود ولم نقل حتى أنه ملون". وامرأة أخرى لاحظت الخوذات الفولاذية في إحدى سيارات شبكة التلفزيون فعلقت ضاحكة للسائق "هل أنتم مستعدون للصيف القادم" .

عندما فتحت أبواب كنيسة (معبد الأيمان) في الساعة التاسعة والثلث تكالبت عليها أفواج المنتسبين لمنظمة الـ (أو.أيه.أيه.أو) ، وخلال الربع ساعة التالية اتخذ عشرون رجلاً منهم مواقعهم لإرشاد الحضور إلي أماكن جلوسهم عبر ستمائة حامل مقعد، بينما تجمع خمسون مراسلاً صحفياً ومصورون ورجال الكاميرات التلفزيونية تحت الصورة الجدارية الزيتية خلف المذبح والتي تمثل بعض المشاهد الدينية ،كما جلس

بعضهم على المقاعد حتى يستطيعوا المشاهدة بطريقة جيدة. وظهر مهندس زنجي للإشراف على معدات التسجيل بين المذبح والنعش الذي كان يحرسه ثمانية شرطي زنجي في زيهم الرسمي، وشرطيتان زنجيتان، وكان زنجيان آخران من الشرطة في ملابسهم العادية على جانبي الأخت (بيتي) والتي جلست في كامل نقابها في الصف الثاني.

صَفقَ غطاء النعش المرفوع الشمعدانة والصندوق النحاسي بالكنيسة ، ونصح رئيس البعثة الإسلامية في (بروكلين) بأمريكا شيخ الحاج داؤود أحمد الفيصل بعدم الإتيان بأي شعيرة في القداس الجنائزي يُرد فعلها للدين المسيحي وإلا فان ذلك سوف يجعل من المسلم الفقيد (كافراً)، كما اعترض الشيخ على بدعة الأيام التي عرض فيها الجثمان على الجمهور قائلاً "إن الموت أمر يخص الميت وخالقه". علماً بأن مرشدى ال(او.ايه.ايه.يو)من قبل ان تبدأ الشعائر الجنائزيه، قد قاموا باحضار إكليل من الزهر وتشكيل النجم والهلال الاسلامى من القرنفل الابيض على خلفية زهرية من القرنفل الاحمر.

في البداية قام الممثل (أوزى ديفيذ) وزوجته والممثلة (روبي دي) بقراءة رسائل وبرقيات التعزية والتي وفدت من بعض الشخصيات الهامة مثل دكتور(مارتن لوثر كينق) وكل منظمات حقوق الإنسان العظمي، كما وفدت بعض الرسائل والبرقيات من المنظمات والحكومات الخارجية مثل (الجمعية الافروباكستانية الغرب هندية لمدرسة لندن الاقتصادية) ، ومؤتمر (القوميين الأفريقيين) لأفريقيا الجنوبية، ومن السفير النيجيري بلاقوس، ورئيس جمهورية الصين الشعبية، والدكتور (وامي كروما) والذي علق (مقتل مالكولم إكس يجب أن لا يذهب سدي).

بعد ذلك خطب (عمر عثمان) ممثل المركز الإسلامي بسويسرا والولايات المتحدة قائلاً "عرفنا الراحل مالكوم إكس كأخ في الدم، خصيصاً بعد حجه إلي بيت الله الحرام في السنة الماضية، فإن أسمي شيء تتوق إليه نفس المسلم أن يموت شهيداً بميدان القتال وليس في فراشه". ثم توقف برهة منتظراً توقف التصفيق الذي ابتدره المعزيون "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون"، فأرتفع التصفيق والهتاف "أحسنت. أحسنت". ثم علق عمر عثمان منتقداً التعليقات التي صرح بها (كارل براون) مدير الـ (يو.أس.أي.أيه) في (واشنطن دي. سي) على ردود أفعال الصحافة الأجنبية لموت الفقيد، فارتفعت أصوات الاستهجان بين الحاضرين.

ثم وقف الممثل (أوزي ديفيذ) للمرة الثانية وعبر صوته العميق قام بمدح مالكولم اكس في إطلالة من الحديث نال بها بعد ذلك مكانة مرموقة وموجة من الثناء والمدح لم يحظ بها من قبل بين إخوته الزنوج بهارليم، حيث خطب قائلاً : "هنا في هذا المكان

الهادي والساعات الفاصلة جاءت هارليم لوداع قبس من ألمع إشراقات آمالها الماثلة في ضمير حاضرها، ولكنه رحل عنا وإلي الأبد، يتسائل الناس ما الدافع الذي يحدو بهارليم لتمجيد هذا الربان الجرئ، وموقظ الجدل الثائر، سنبتسم لهم مهما يقولون، سيردد الناس أنه متعصب للكراهية والعنصري الذي جلب المصائب للسبيل الذي نكافح من أجله. سنرد عليهم قائلين.

هل تحدثتم أو استمعتم إليه ذات يوم ؟

هل لمستموه بأيديكم ؟

هل وجدتموه وهو مبتسمٌ لكم؟

هل نفذ اخونا مالكولم ما أضمره أو عناه في قوله ؟

هل اشترك بنفسه في عنف أو فوضى ؟

لو عرفتم حقيقة كل ذلك إذاً لعرفتم من هو أخونا مالكولم, إذاً لعرفتم لماذا نحن نكرمه الآن. عَبّر مالكولم عن بأسائنا عَبّر عن دمائنا الحارة كسود أكرمين، وهذا هو جوهر رسالته إلى شعبه الأبي، ونحن إذ نكرمه ،فإنما نكرم الأفضل فينا ..... وسوف نذكره أبداً بما كان أميراً لسوادنا المشرق، والبطل الذي لم يتردد للموت من أجلنا لأنه يحبنا كثيراً".

ثم ألقي أشخاص آخرون خطباً مختصرة. وبعد ذلك الأسرة وأعضاء الـ(أو.ايه.ايه.يو) ومسلمون آخرون، حيث وقفوا ملتفين بالنعش لرؤية الجثمان للمرة الأخيرة. وفي الختام قام الشرطيان المكلفان بحراسة الأخت (بيتي) بإرشادها لرؤية زوجها للمرة الأخيرة ، فانحنت وقبلت الزجاج فوقه وانفجرت في البكاء، فتجاوبت معها النسوة المعزيات وكانت تلك هي المرة الأولى التي ارتفع فيها البكاء بين الحاضرين.

دامت الشعائر الجنائزية أكثر من ساعة بقليل، حيث ختمت الشعائر بصلاة الجنازة والتي استمرت لمدة ثلاث دقائق، قام بها الحاج هشام جابر من (ايذا بيز، نيو جيرسي)، وعند ارتفاع أصوات المسلمين (الله أكبر) في كل مرة كانت كل أياديهم ترتفع على جانبي الوجوه.

بعد ذلك وفي مشهد جنائزي يتكون من عربة الجنازة والحاشية الرسمية وثلاث سيارات لأسرة الفقيد وثمان عشرة سيارة للمعزيين وأثنتي عشرة سيارة شرطة وست سيارة صحفية وخمسين سيارة أخرى، تحرك الركب ثمانية عشر ميلاً خارج (مانهاتن) وعلى طول الشارع الواسع بنيورك وعبر المخرج (7) للوصول الي مقابر

(فيرنكليف) بـ(آردسلي.أن.واي). وعلى طول الطريق كان الزنوج يضعون أياديهم وقبعاتهم فوق صدورهم تعبيراً عن احترامهم الأخير. وفي كل تقاطع للطرق بالكباري وقفت سيارات الشرطة للمراقبة، كما قامت شرطة مقاطعة (وستشستر) بنشر عدد من رجال الشرطة على مسافات متفاوتة على طول الطريق المؤدية إلى المقابر.

قام الشيخ الحاج هشام جابر بتلاوة الصلاة الأخيرة فوق النعش، ثم وضع الكفن في القبر ووجه الميت متجه نحو الشرق حفاظاً للأعراف الإسلامية، فسجد المعزون المسلمون بجانب المقبرة وجبهاتهم تطأ الثرى متجة نحو الشرق .وعندما غادرت الأسرة المقبرة رفض أتباع مالكولم أن يدفن حافر القبور الأبيض الكفن والذي وقف على جانبه منتظراً، بينما قام سبعة من أعضاء الـ(أو.أيه.أيه.يو) بذر حفنات التراب في القبر، ثم قاموا بجرف التراب نحو المقبرة حتى تكوم من فوقها.

أسدل الليل أستاره على ثرى الحاج مالك الشباذ ،والذي سمي (مالكولم اكس)، والذي سمي بـ(مالكولم الصغير)، وأيضاً (الأحمر الكبير)، و(الشيطان)، و(ابن البلد)، والذي دفن كمسلم وفقاً لتعاليم الإسلام، واستشهدت النيويورك تايمز وفقا لما ذكر في القرآن ؛ أن أجساد الموتى ستبقي في القبور إلي يوم الحساب(وهم فى برزخ إلى يوم يبعثون). وفي هذا اليوم ستُزلزل الأرض(اذا زلزلت الأرض زلزالها). وتنشق السماء وتُدك الجبال حتى تصبح ذرات من الغبار(تكاد السماوات يتفطرن منه ،وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً). وتفتح القبور وينادي الناس لحساب ربهم(ونفخ فى الصور فاذا هم من الأجداث الى ربهم ينسلون)، (ان كانت إلا صيحة واحده فإذا هم جميع لدينا محضرون).

المتواضع والمحسن والمبارك ومن يخاف الله والذين عانوا واضطُهدوا في سبيل الله ومن جاهد في سبيله سيرزقون بجنات الفردوس(وأُوذوا فى سبيل الله وقَاتلوا وقُتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار).

الملعونين والطامعين وفاعل الشر ومن يتبع آلهه دون الله سوف يرسلون إلى النار خالدين فيها (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون)، حيث يطعمون من ماء مهين ونحاس منصهر (فشاربون عليه من الحميم). و الموت الذي هربت منه أنفسهم سيلاقيهم ثم يردون إلى خالق الأشياء سراً وجهراً وسوف ينبئهم بما كانوا يعملون (قل إن الموت الذى تفرون منه ملاقيكم ، ثم تردون إلى عالم الغيب و الشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) .

كما ورد عن نبي الله (محمد): أنهم سيرزقون إلى الأبد أنهار متدفقة متكئين على الأرائك على مساند من (إستبرق) يستمتعون برفقة أزواج تقيات والحور العين (جزائهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا) .

(هم وازواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون).

(متكئين على سرر مصفوفة و زوجناهم بحور عين) .

عندما وقعت على عقد هذا الكتاب نظر إلي مالكولم بصرامة "على الكاتب قول ما أريده انا وليس ما يفسره هو". فحاولت جاهداً أن أكون ناقلاً موضوعياً لسيرته الذاتية, بيد أنه في حد ذاته كان شعلة من العواطف وأميز ممن قابلتهم من قبل، ولا أستطيع حتى هذه اللحظة أن أتقبل فكرة كونه ميتآ، فمازلت أشعر أنه ذهب إلى فصل آخر ليؤرخه نيابة عني كُتابٌ آخرون.